البُرنس

رواية

د / مصطفى سليمان الخطيب

اسم الكتاب: البُرنس

اسم الكاتب: مصطفى سليمان الخطيب

تدقيق لغوي وتنسيق : نورهان هاني

تصميم الغلاف: أسماء منير

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٢٧٣٢٨

الترقيم الدولي: ٨-٥١-٨٧٩١-٩٧٧-٩٧٨

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

البُرنس

رواية

مؤسسة الكاتب العربي
The Writer Operation

شكر خاص

بكل الحب والوفاء وبأرق كلمات الشـــكر والثناء ومن قلب يملأه الود والصفاء، أتقدم بأسمى آيات الإشادة والإطراء لكل روح وقفت بجانبي وساندتي بكل الإخاء لكي يخرج هذا العمل الى النور ونخص بالذكر:

دار الهادي للعلاج النفسي وعلاج الإدمان

فكل الشكر لكم من القلب

ونسأل الله العلي العظيم التوفيق والقبول والسداد.

القاهرة ٤/١١/٢٠٢٤

تحذير

هذه الرواية من محض خيال المؤلف وأي تشـــابه في الشـــخصـــيات أو الأســـماء أو الأحداث هو من قبيل الصدفة البحتة.

إهداء

قال تعالى:

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

{ سورة التوبة: الآية ١٠٥ }

ربي لا يطيب ليلاً بغير حمدك وثناءك، ولا يهنأ لي نهاراً بغير شكرك وذكرك، فكل ما في السموات والأرض يسبح بحمدك ويسجد لك تجلت أسماءك وصفاتك في ملكوتك سبحانك ما أعظمك خلقتنا ورزقتنا من غير حول منا ولا قوة، فلك الفضل والثناء في الملأ الأعلى كما يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك.

إلى من علماني أبجديات الحروف وبدايات الأرقام، اللذان كدحا وتســـاقطت حبات العرق من جبينيهما الطاهرين كفاحاً لتربيتنا ونشـــأتنا، إلى من تعبا وســـهرا الليالي ليداوينا، إلى من نصـــراني ظالمًا أو مظلومًا ومن زرعا فينا أجمل معاني الحب والشـــجاعة والوفاء ومن أفنيا عمرهما وصـــحتهما لكي نواجه مصاعب الحياة كالأبطال أبي وأمي.

إلى الروح التي عانقتني وأشـــعلت عواطفي لتوقظني من رماد سباتي كطائر العنقاء لأحلق في سماء الكون، من أبصرت بها طريق حياتي ومن تنفست رحيقها كزهرة من الياسمين ومن دعمتني وبثـت في قلبي الحمـاس لأدون حروف وكلمـات وصـــفحات هذه الرواية ويحكى أن إســـمك عنوان إبتديت به جميع روايات سعادتي يا ميلادي الثاني ويا عطري الباقي ويا طفلتي المتمردة.

إلى كل روح هائمة وتسكن بين طيات الكتب، تهدأ سكناتها مع وقع الكلمات وتغرق همومها وأحزانها في محيط الحروف لتبحر بين سطور الروايات، لتنسى أو تتناسى وجعاً ألم بها أو ضيقاً يمرق بصدرها، لتتغافل عن أحزانها وتنفض عنها غبار اليأس وتمحو هبوة الخيبة وتزيل هباء القنوط، لتخرج من شرنقتها فراشة رقيقة ملكية ذات أجنحة متينة تسر الناظرين وتترك أثر رقيق في كل مكان تطير إليه.

إلى من يحملون مشاعل النور ويحاربون ظلام الجهل، من يحرقون أصابعهم كشمعات من ضياء ليضيئوا بارقة الأمل ليستنير مطلع الفجر ويسطع شفق الشروق، إلى القراء اللذين يفهمون ما يقرأون، ومن يقرأون بفكر ليهدموا أصنام الجهل ويحطموا أوثان الجاهلية، ومن يحاولون بصدق أن يدخلوا البهجة والطمأنينة الى قلوب غيرهم فيساهموا في بث الهدوء والرضا في كل نفس حائرة مضطربة ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى المعرفة وإلى عالمنا الخاص.

إلى عائلتي، أقاربي، أحبابي وجيراني ...

إلى جميع أصدقائي ومعارفي ...

أهدي إليكم جميعاً صفحات هذا الكتاب

د/ مصطفى سليمان الخطيب

١

أرجعه إلى وعيه خط من الصداع مر برأسه، عادت إليه حاسة سمعه أولاً، وصلت لأذنه أوامر كثيرة ونواهي، لم يفهم منها شيء، يحاول فتح عينيه بصعوبة، وعندما فعل كان فوقه سقف من الفلين الأبيض والمرشح بالماء من نواحٍ عدة، مرصع بلمبات فلورسنت بيضاء، كثير منها تحطم في زمن ما وملأها التراب، **فكر للحظة :**

- كيف تسرب التراب الى هذا الأنبوب محكم الغلق.

محاولته التفكير أعادت إليه الإحساس بالصداع، أغلق عينيه في محاولةٍ لتقليل الألم.

فتح عينيه مرة أخرى يتطلع حوله، إنه في مستشفى، ذاكرته تعود رويدًا رويدًا، آخر ما يذكره أصوات مكابح سيارة وأضواء كثيرة وأبواق سيارات وأناس يجرون ناحيته ثم الغياب التام.

تحته ملاءة كانت بيضاء يومًا، مبقعة ببقع دم متجلط، حوله مرضى في أوضاعٍ مختلفة، يتطلع إليه زوارهم في فضول، عاملة نظافة تتحدث إليهم أثناء جمعها ما ألقوه بأنفسهم

من أكياس البطاطس الفارغة والمناديل الورقية المستهلكة، نظرت إليه **وقالت:**

- حمد لله على السلامة يا بيه.

نعم يتذكر الآن، ترك الأهرامات خلفه ثم ضغط على دواسة الوقود ليوصل سيارته إلى السرعة القصوى، في الطريق الصحراوي، يفتح نوافذها جميعًا، يريد الهواء أن يضرب وجهه فلا ينام، صوت مشغل الموسيقى مرتفع على آخره، لكنه لا يفقه مما يُغنى شيء، غضب لم يمحوه الخمر الذي مازال يعبق برأسه.

يرجع للحاضر على صوت احتكاك عجلات عربة العاملة السمراء ببلاط العنبر، عمله في مستشفيات القاهرة منذ تخرجه جعله ينظر لهؤلاء شرذًا، دارت على المرضي تُعطي كل منهم نصيبه من الدواء، **لا تزيد عن قولها :**

- قوم يا حاج.. شمر دراعك.. متتحركش بقى عشان نخلص .

لا اتباع لسياسات إعطاء الدواء، لا اختبارات حساسية، لا قواعد من انتقال العدوى، جزء آخر من ذاكرته يرجع إليه، الذي يجعله يحاكم الآخرين على سلوكهم هو كونه طبيب

تخدير، نعم طبيب تخرج حديثاً من جامعة القاهرة، ليعمل ويستقر هناك، ورافضًا طلبات أمه بالرجوع، وفكر في قلبه **قائلا لنفسه :**

- لا مستقبل هنا لي.

تريده بقربها ولا تفهم شيء آخر أمه المريضة، شوقه إليها ما جعله يفكر بالرجوع للفيوم رغم إرهاقه.

توقف تفكيره عندما حان دوره في الدواء، **سألها محاولاً أن يكون هادئًا:**

- إيه ده ؟

أجابت:

- شوية مسكنات ومضادات حيوية .

أغضبه ردها لكنه يريد أن يفهم ما حدث أولاً، **يفكر داخل عقله:**

- **(كالعادة كل شيء هنا عشوائي).**

تدور في عقله الأفكار مع الألم (كان على صواب عندما رفض العمل بهذا الإقليم المنسي البائس)، لكن لا طاقة عنده للمعارك الصغيرة.

خرجت كما جاءت بخطوات بطيئة تدل على وصـــولها لحالة من الملل المزمن من جراء العمل المتواصـــل لســـاعات طويلة، هي مثله تعايشـــت مع قلق الآخرين والمهم أنها لم تعد تُبـالي، فكر أنـه ليس عليـه أن يتعـالى، الكل في هذا المجـال متشـــابهون في نـاحيـةٍ مـا، فهم دائمًـا مرهقون.. نـاقمون.. غير مبالين بصرخات الألم.

يريد أن يصـــرخ، ليس فقط من جراء الألم المنطلق مع كل نبضـــة من جميع أنحاء جســـده، ولكن أيضًـــا لأنه تذكر وجه **(هالة)**، نعم.

كل ما حدث ويحدث الآن جراء هالة.. لوجه هالة، دوناً عن غير ها من بنات كثيرات كان يمكن له بقليلٍ من التودد أن يصـرن له صـديقات أو حبيبات، لما هالة إذا؟ حاول البحث عن الأسباب، ناقم عليها في أوقات الإختلاف لكن مجرد التفكير فيها واســـتعادة جمال وجهها ورونقها الطاغي في مخيلته يمكنها أن تسكنه بكل هذه القوة.

ربمـا لأنهـا تمشـــي ولا تلتفـت لمن يلقي عليهـا كلمـات الإعجاب، إنها بشـكل ما يجهله الى الآن تشـبه أمه، أمه.. يعود ويتذكر أمه التي منعها مرضـــها من أن تأت للقاهرة، في ليلةٍ

كانت مهمة له بشكل استثنائي، شعر بشوق هائل للمسكنات التي يحقنها لنفسه كي يزول الألم.

دخل شـاب بقميص وبنطال أبيضـين، وكاب للرأس وحزام أســـودان، عرف أنه شـــرطي يتأمله الجميع وهو ينقل قدميه متمهلاً، ذعر أصـــابه عندما توقف ببصـــره عنده، ثم حاول إخفاء مشاعره.

اقترب الشرطي منه وتأمله بعينين أعتادا الريبة وافتراض الخطأ في جميع الناس، وقف بجوار السـرير الذي يليه، رغم أن مريضًا يغطي ساقه جبيرة بيضاء، **إلا أنه قال دون أن ينظر:**

- خد عندك شوية كدا يا حاج.

وجلس فأطلق المريض آه كتمها في النص الثاني منها.

لمح فوق الأوراق التي بيدي الشـرطي بطاقته الشـخصـية، يتأمله ما يزال، **ثم قال :**

- حاجاتك المسعف سلمها في أمانات المستشفى، وأخدنا من محفظتك بطاقتك الشخصية للإستدلال على شخصك لأنك كنت فاقد الوعي.

مـاذا عن مـا بقى من ثمن شـــبكـة هـالـة، والتي كـان من المفترض شرائها كبداية لتحويل قصة حبهما على شكل علني.

استكمل الشرطي كلامه:

- عاوزين نستكمل بيانات بلاغ الشرطة، هز رأسه دون أن يتكلم.

- الاسم والسن والعنوان؟

- الاسم نبيل حسن زيدان الروبي.

رفع الشـــرطي البطاقة أمام بصـــره فيما يبدو أنه يقارن المعلومة التي قيلت للتو.

أما هو فقد رجع بفكره لأبيه، العمدة حســـن الروبي، الطويل ذو العصـــاة والهيبة، دائمًا كان يخشـــاه، دائمًا ما حاول تقليده لكنه فشـــل، لم يمتلك يومًا هيبته حينما يمشـــي ويتحرك، وجاذبيته عند التطلع إليه، يأمر فيطاع في الحال، يتكلم فيســكت جميع الحضور.

أما هو يبدو فيه الجلباب البلدي كأنما يؤدي دور في مسلسل متوســط الجودة، فاختار أوقات حضــوره القصــيرة بالقرية أن يمشــي ببنطال قصــير إلى ما فوق ركبتيه فيثير إســتياء الرجال، **فيقولون وهم يتميزون غيظا :**

- منورنا يا دكتور.

يعود على صوت الشرطي وهو يسأله:

- إيه اللي حصل وقت وقوع الحادث؟

له شـــارب منثني من جوانبه بشـــكل مقيت، فكر **(نبيل)** في شارب أبيه، له واحد اعتنى بيه جيدًا، يهتز خفيفًا عندما يتكلم في أوقات الغضب، فيمسحه ليطمئن على تهذيبه من حين لآخر، أما هذا الشارب فيبدو أنه وضع عنوة في غير موضعه.

- لما الاســـعاف جابتك بالليل كانت ريحتك كلها تفوح بالخمور، ظابط النقطة طلب فحص الكحول في الدم، وفي انتظار النتيجة عشان تتحط مع المحضر.

أفزعه الأمر، حاول أن يكســـب لنفســـه بعض الوقت لحين حضور أبيه، **فقال** :

- مش فاكر حاجة.

زادت الريبة في أعين الشرطي .

فقال نبيل: محتاج أتصل بأهلي.

فقال الشاب وقد خلع كابه الأسود، مسحه ثم أرجعه إلى مكانه :

- فيه بلاغ راح على عنوانك من مركز الشرطة التابع لك لإبلاغ الأهل .

ثم سأله مرة أخرى:

- مش فاكر أي تفاصيل عن وقت الحادثة؟

هز نبيل رأسه بالنفي، فقام الشرطي فانتفض المريض الذي ظل منكمشًا وراء ظهره **ثم قال:**

- كدا كدا هتفتكر يا دكتور، دي أرواح ناس، مش هزار يعني.

ثم غادر العنبر كما دخله.

٢

مبنى كلية طب القصر العيني

وضع طب جامعة القاهرة كأولى رغباته، تمنى أن يعيدها بشكل متكرر في كل الخانات الفارغة في ورقة مكتب التنسيق، محال أن يكمل حياته هنا، لا مكان له ولا لطموحه، يجب أن يغادر للمدينة الكبرى، حيث لا أحد يعرفك ولا أحد يضع أنفه في أمرك، أما هنا في هذا الريف الذي لم يعرف عن الحضارة سوى التلفاز والهاتف فلا زال يعلم الجميع فيه كل شيء عن الجميع، ولازال لأبيه سلطة على الرجال قبل غيرهم.

يريد أن يهرب من سلطة أبيه أولاً، قبل باقي الأشياء هنا، كان يومًا موعودًا يوم جاء الخطاب إليه بالقبول في كلية الطب بالقصر العيني، ظل يردد الكلمة، كأنما يتذوق حلاوتها على لسانه:

- **(القصر.. القصر)**.

حتى بكاء أمه، الإنسانة الوحيدة التي تربطه بالقرية ولم يخفف من حدة سعادته، أخذ القليل من الملابس وقليلاً من الطعام الذي وضعته له أمه عنوةً في حقيبة سفره، كان يريد حياة جديدة يكون فيها مبرءًا من كل عيوب الريف الذي يكرهه.

لم يكن الأمر بالبساطة التي تخيلها، فقد ظلت لهجته أو ما سماها زملاء الدفعة **(الأكسنت)** مغايرة، مثيرة للسخرية أحيانًا والضحك أحيانًا، مفردات ينطقها بشكل عفوي تحيل سامعها إلى جذوره، يتمثل له أبيه في خياله وهو ينطق هذه الكلمات بكل ثقة، ويؤكد على الحروف الأخيرة حتى لتسمع لها رنين في الفراغ بينه وبين المتكلم، أصر على التخلص منها رويدًا رويدًا مهما طال الأمر.

عرفوا فيه إندفاعه وحبه للمغامرة، يجرب كل مكان بالقاهرة، يدخل كل ملهى يراه، يشرب في كل بار، يأكل في كل

مطعم، يدلل بالهدايا كل فتاة تمنحه إبتسامة وكلمة طيبة، فاشتهر بين مجموعة أصدقاءه بإسم (**ابن العمدة**) يصرون عليه رغم عدم ترحيبه به.

يحاول بشكل لا واعي أن يظهر أنه لا يقل عنهم في شيء، هو أول من يبادر بدفع الفواتير عن أي اجتماع لهم في مطعم أو مقهى أو من يشترى كُتباً ومستلزمات الدراسة، ولكن هذا على العكس مما أراد فلم يردعهم كرمه وإغداقه على أصحابه وزملائه من أمواله، بل زاد إصرارهم على إعتباره (**ابن عمدة**)، حتى أحس بنفور منهم، وإن ظل التواصل قائماً.

أما ما جعله يقطع أواصر الصداقة ويبتر علاقته بالجميع نهائياً بالجميع نهائياً فكان منذ أن رأى (**هالة**) أول مرة في مقصف الجامعة، والذي يذهب إليه كل عدة أيام ليرى ويقابل معارفه.

كان صباح يوماً ما، حينما جلس وطلب طعامه، حيث يطلب من القائمة كل مرة شيئًا جديدًا بالنسبة له، ويأتي الطعام رغم مظهره الجيد غير متوافق مع ذائقته.

تذكر أمه التي يفتقد مذاق طعامها كلما جاء وجلس هنا، دخلت (**هالة**) وجلست على الطاولة المقابلة له، شيء ما فيها

جذبه منذ النظرة الأولى، فظل يخطف النظرات إليها، يخطوا الناس في المسافة الفارغة بينهم، يحجبونها عنه للحظات، يظل منتظرًا إزاحة أجسادهم وإعادة صورتها لتملئ الكادر بصورتها الجميلة أمام عينيه.

انتهت من كوب قهوتها والبسكويت وقامت وحيدةً بلا صحبة كما دخلت، خرجت من المكان ولكنها لم تخرج من مخيلته، انتهى اليوم وعاد إلى سكنه، يفكر فيها، يستوقف نفسه ويحاول فهم ما الذي هزه من داخله إلى هذا الحد، لكن انطبقت عيناه من النعاس ولم يجد ردًا منطقياً.

في الصباح كانت معه وهو يفتح الماء فوق رأسه كي يستفيق، وهو يصب الماء الساخن على كوب القهوة سريعة الذوبان، وهو يغلق باب مسكنه ويمشي.

مرةً أخرى لا يجد سوى تفسيرات أمه لكل فعل لا تستطيع له تفسيرًا بأن **تسميه بكلمة واحدة :**

- النصيب.

ربما إذاً نصيبه هي هذه البنت الهادئة، ربما ستكون رفيقته لباقي أيامه على الأرض، لم يدخل إلى قاعة الدرس، بل ذهب إلى المقصف وجلس في ذات موقعه بالأمس، وكانت سعادته

غامرة وغامضـــة وهو يراها تدخل، حيث تمضـــي بين زحام المكان، وخطواتها تحمل مزيجاً من الثقة والتردد، كأنها تســير على خط رفيع بين الواقع والطموح.

تنســدل خصــلات شــعرها بخفة على كتفيها، تنســجم مع الرياح التي تلعب بها برفق، وكأنها تهمس لها بأسرار المستقبل، عيناها السود تتألقان ببريق الحماس، وفي نفس اللحظة لا تستقر على وجه بعينه.

تبدو شاردةً في أفكارها، تمسك القلم للحظة، تكتب شيء ما في دفترها ثم تعيد وضـعه، تأخذ رشـفة من فنجان قهوتها، يفكر بشكل طفولي لو تحول بين يديها إلى كوب من الخزف.

انتهت فقامت، فبدا كما لو أن المكان غطته سحابة سوداء فجأة، فحجبت عنه ضوء النهار، شغله لأيام كيف تكون البداية، حتى رآها في الساحات الخضراء، وقف بعيداً يراقبها، تقرأ في كتاب لها، تريحه أحيانا بين أيديها البيضـاء الجميلة، وتنظر إلى السـماء متأملة، ثم تعيد فتح كتابها، يتأمل وجهها الطفولي وتأكد أنها هي: **(نصـيبه)** فشـيءٌ ما جذبه إليها وأحس بأن خيطاً غير مرئي يربطه بها.

اقترب على حذر، ووقف قريباً، ألقى تحية المسـاء، رفعت وجهها إليه، أضـاءت الشـمس طلتها البهية وبدت بملامح رقيقة

وشفاة ممتلئة وخدود مرسومة بريشة فنان فكأنما أبدعها الخالق عز وجل وجعل منها قمراً منيراً، وعندما التقت عيناهما للمرة الأولى؛ بدا الزمن وكأنه توقف؛ عيناها كمرآة عميقة تعكس أسراراً لم تبح بها لأحد، وشعرها منسدل كمهرة تمشي بخطواتٍ رشيقة القد مليحة القوام وعيناه ككتاب مفتوح مليء بالشوق المنتظر.

كانت نظراتهما أشبه برسائل صامتة، تحمل بين طياتها ألف كلمةٍ لم تقال بعد.

لم يجد في عقله كلمات ذات معنى، سأل بإرتباك :

- ممكن أقعد؟

كان صوته دافئاً، يحمل رنيناً كأنما خرج للتو من أعماق روحه، وهي ترد بإبتسامة خجولة بمعنى الموافقة، وكأنما مدت يدها الرقيقة وفتحت له باب جنتها، كان اللقاء الأول بينهما كنسمة ربيع هادئة تحطّ على قلبين عطشى للحياة، صحيح أن الساحة تعجّ بالضجيج من حولهما، لكن كل الأصوات تلاشت، وكأن العالم بأسره اختصر في تلك اللحظة.

لم تكن الكلمات الأولى مجرد حروف مبعثرة، بل خطوات خجولة تتلمّس الطريق نحو عوالم أُخرى.

لحظات صمت قصيرة تسللت بينها الجمل، لكنها لم تكن ثقيلة، بل مليئةُ بحضـــورٍ خفي، أشـــبه بموســـيقى لا تُســـمع، لكنها تُحسّ.

تحدثا عن أشياء بسيطة، لكنها بدت كأنها أعظم الحكايات، عن شـــغفهما بالأشـــياء الصـــغيرة وعن أحلامهما التي ترفرف كفراشات على أعتاب المستقبل.

كان اللقاء عفوياً، لكنه مكتمل بكل ما يعنيه القدر، لحظةٌ نسـجت خيوطها بين واقع وخيال ، حملت وعداً بأن شـيئاً جديداً يولد بينهما، شـيئاً لا يصـفه الكلام، لكنه يسـكن القلب ويضـيء الروح ويدفئ الجسد فيمده بطاقةٍ من الحب لا مثيل لها.

٣

رآهما أصـــدقائه القدماء بالكلية معًا وهي تتأبط ذراعه، يمشون على الكورنيش بمحاذاة النيل، يبتسم إبتسامةً رائقة غير معتادة منه، فقد إعتادوا عليه وهو يضـــحك بصـــوت صـــاخب ويلقي برأسه للوراء.

يُحدث جلبة دائمًا في أي مكان يجلس فيه، يضـــرب أكتاف الآخرين والطاولة التي أمامه، يُلقي عود ثقابه بعد إشـــعال ســـجائره بعنف، يطفئ الأعقاب بعنف، يزيح الكرســـي للوراء عندما يقوم بعنف، لكنه الآن هادئًا كما النيل.

قالوا لأنفسهم أنها مرحلة وتمر وحينها يعود إليهم أشد شبقًا للحياة والخمر والجنس، لكنه طال في غيابه، فقد كان يعيش مع **(هالة)** مشـــاعر جديدة ومختلفة تمامًا، تتراجع فيها الرغبة للوراء، لمس يدها يغنيه عن علاقة كاملة، وتتقدم أحاســـيس الشـــوق والرغبة في البوح، فحكى لها عن أمه وأبيه، أرضـــهم الزراعية، محاولاتهم بجعله جزء من هذا العالم ومقاومته لهم، يلتقط لها الكثير من الصور بهاتفه المحمول، وهي تستند بخدها على ظهر يدها، وهي تأكل، وهي تحرك فنجان القهوة في قاعدته الرخامية، يصـــيبها ذلك بالخجل، تطلب منه التوقف، لا يفعل، فقط يضحك وهو يراجع الصور على هاتفه.

قالت: أنها لا تمانع بالذهاب والعيش معه هناك.

ولكنه رفض، أتهامها بالرومانسية المفرطة، وبعدم الواقعية، لن تستطيع الصمود هناك أبدًا، حيث الغبار والناموس والكثير من النميمة، قالت لكن النميمة في كل مكان ولكنه أصر أن هنا ستكون حياتهم، وهنا سيبدئون حياتهم العملية معًا، سيعملون ليل نهار، لن يطلب قرشًا واحد من مال أبيه، ما أن تنتهي سنوات الدراسة حتى يبدأ عمل يستمر ليل نهار، ليجمع ثمن الشبكة، بعدها شقة صغيرة وأنيقة، سترتب هي كل زاوية فيها بما يليق برقتها وجمالها الفتان المثير.

كانت أيامًا مليئةً بأحلام اليقظة والنوم، مرت ببطء يريدون الإستيقاظ صباحًا ليجدوه يوم التخرج وبعده إستلام الترخيص الذي بموجبه يستطيعون مزاولة مهنتهما قد جاء، وجاء اليوم المنتظر.

اتفقا على العشاء في مكان جميل، قررا بمرارة تقليل أوقات اللقاء؛ حتى يتفرغًا بشكل أكبر لجمع المبلغ اللازم لشراء الشبكة وإعلانها على كل الناس.

مر على عدة مستشفيات خاصة، وضع نفسه أيامًا، كما جعل نفسه تحت أي اتصال في حالة إحتياجه لعملية طارئة، الحوادث، والولادات والسكتات الدماغية المفاجئة.

يحمل حقيبة صـــغيرة على ظهره، بها الملابس الخاصـــة بالعمل، وكتيب بأسـماء أنواع التخدير، فهو لم يصـير متمرسًـا بعد، يتنقل بها من مســتشــفى الى أخرى، يختطف أوقات نومه أثناء ركوبه سـيارات الأجرة، يأكل قليلاً ويدخن كثيرًا، لا يحب النظر إلى نفسه في مرآة الحمامات عندما يدخلها، كي لا تزعجه الهالات الســمراء حول عينيه، هي مرحلة وتمر، ســيكون مع **(هالة)** بعد ذلك وحينها سيرشد من ساعات عمله حتى يتسنى له قضاء أكبر وقت معها.

ما يزيد من إرهاقه طبيعة عمله الصـــعبة، يحقن المريض المُسـجى على الطاولة أمامه بالمخدر، يسـري في دمه ليسـتقر بمخه، ويغلق كل الأعصـاب الموصـلة بينه وبين باقي أعضـاء الجســد، لا رســائل ولا أوامر منه وإليه، شــلل تام وكامل، لو كانت الجرعة أقل مما يجب سيستيقظ عقل المريض، ليشعر بكل الألم، وقد يحرك أعضـاء من جسـمه كذراعه أو قدميه مما يصــبح خطراً علي حياته أثناء ســير العملية الجراحية ويكون مســتمعًا لما يدور، مدركًا لما حوله دون قدرة على تحريك إصــبعه ليبلغهم أنه هنا معهم، يســمع ما يقولون : كبير الأطباء ينقل معرفته لطلابه، يُلقي بدعابة بذيئة على الممرضـــة، يأمر بغضب مساعده بالإنتباه لمؤشر الأكسجين وهو المهم في

حالات التخدير العام نظراً لتوقف عضـــلات الحجاب الحاجز مما قد يؤدي بالمريض إلى الوفاة إذا نفذ الأكسجين .

أما لو كانت جرعة التخدير أكبر مما هو مقرر لها فســيكمل المريض حياته نومًا ولن يســتيقظ أبدًا، يظل متوترًا حتى تنتهي العملية كلها ويعطي حقنة عاكسة لمفعول المنوم وبعدها يستيقظ المريض في شكل إستجابة للألم حينما يقرص أذنه كطفلٍ أذنب.

حينها فقط يطمئن فيعاود التفكير في (**هالة**)، في ما بقي له لإســتكمال المال اللازم، في موقع شــقته الجديدة بدلاً من تلك المشــتركة مع الأصــدقاء في (**المريوطية**)، تمنى أن تكون في مجمع مقفول على أهله، ولا غرباء بينهم، حينها سيكون سعيدًا بألا يحتك بأي أحد في الشــارع، لا يريد أن يكون حالماً غارقاً إلى أذنيه في الأحلام، كي لا يستيقظ على الأيام تقرصه في أذنه كما يفعل هو مع مرضاه، فلتكن الأمور بالهدوء اللازم، الخطوة الأولى أن يمتلك هالة، أن يأت الوقت وهو يحيطها بذراعيه بهدوء ودون إستعجال منه ولا قلق منها كما هو الحال الآن.

وعندما أوشــكت أمواله على الوصــول للرقم المحدد، قرر الذهاب إلى الفيوم للكلام مع أبيه، لا يمكنه أن يذهب لبيت (**هالة**) منفردًا، حتى هنا لازالوا يتمســكون ببعض التقاليد الاجتماعية على اعتقاد أنها ستؤدي إلى حماية المجتمع وإظهار

الأسرة بموقف مشرف أمام جميع الأقارب من جهة وأمام الأسر الأخرى من جهة أخرى، فيجب أن يكون أبوه وعمه على الأقل حاضـرين، يفكر متى سـنكون مثل باقي الدول التي يقرر البنت والولد مصـــيرهما منفردين متحملين تابعية ما يحدث بعد ذلك لهما، فهما وحدهما من يقررا مصـــيريهما، لا أحكام ولا لوم من أحد.

الخطوة الأولى هي شراء سيارة، أياً كان نوعها فوجودها أفضل كثيرًا، لا يتحمل الآخرين فكرة أن يكون طبيبًا بلا سيارته الخاصـة، المجتمع أيضًـا يضـع شـروطه وأعباءه، كان يمكنه أن يطلبها من أبيه، ولن يرفض، معتبرًا إياها هدية التخرج، لكنه فضل شراءها بنظام التقسيط، ذهب هو وهالة، بعد بحث مطول في الإنترنت، ليشـــتري الســـيارة التي خططا أن تبقى لفترة لما بعد زفافهما بقليل ثم يغيرها.

٤

هالة أحمد السعيد، طالبة الصيدلة الهادئة، خرجت للحياة لا ترى إلا أمها أمامها، والأب مجرد اسم يلي اسمها في الأوراق الرسمية، أما في الحياة فقد حذفته بلا قصد واعي وصارت هالة السعيد، لا هي ولا أخيها ولا أمها ولا أحد من الأقرباء يأت على ذكره في البيت، كأنما هو كتاب تاريخ أغلقت جذباته وانتهى الأمر، كل ما استطاعت جمعه أنها في وسط خلاف محتدم مع أمها ترك لها هذه الشقة في هذا الحي الراقي ثم اختفى، عاود الظهور ليحدد لهما مالاً شهريًا دون أن يأت، كانت صغيرة بحيث لا تتذكر شيئًا، بينما **(حُسام)** أخيها حسم أمره منذ زمن، وقرر أنه يكره أبيه بلا أي تردد في قول هذا في أي فرصة سانحة، بينما هي لم تستطيع حسم الأمر، لا تعرف بماذا تشعر ناحيته.

وهو الذي تركهما من نعومة أضافرهما وتركهما يصارعا المجهول مع والدتهما .

حتى ظهر **(نبيل)** في حياتها ونفخ كثيرًا في فكرة أن تحاول التواصـــل مع أبيها، يعرف أن ذلك مهماً الآن، أبيه العمدة القروي يريد رجلاً ليجلس معه في إتفاق زواجهما، أربكها الأمر طويلاً، غير قادرة على إتخاذ خطوة في أي أتجاه، لكن نبيل ظل يضـــغط، في ســـبيل إيجاد رقم هاتف له وعانت من مشـقات كثيرة ونقاشـات مطولة عن جدوى التواصـل به الآن، إحدى خالتها كانت على تواصـــل معه حتى عهدٍ قريب وعن طريقة يرتب بها إرســـال المال الذي يزيد أحيانًا في أوقات أزمات الأم.

عند أول رد منه :

- "ألو"

سكتت أكثر من المعتاد، كرر هو كلمته، قالت :

- "ألو"

وسـكتت مسـافة مسـاوية، أوشـك الرجل على الدخول في مرحلة الضجر وإغلاق الهاتف، **ولكنها أكملت** :

- "أنا هالة"

جاء دوره في الصمت، تركته يأخذ وقته، **ثم جاءت جملته التالية:**

- "أهلا هالة"

وطلب منها مقابلته واتفقا على المكان وكان مقهى بشـــارع المعز، والزمان عصرًا.

كانت مختلفة عن طبيعتها تمامًا وهي في إنتظار الموعد مع أبيها، هي نفســـها لا تفهم مشـــاعرها، فهي تتأرجح ما بين التوتر والفرح، محاولة اســـترجاع صـــورته لكنها تتلاشـــي من مخيلتها بعدما توشـك على الاكتمال، جاءتها فكرة أن تبحث عن حســـاب له في (فيس بوك)، فتحت جهاز ها المحمول وكتبت اسمه بالإنجليزي، قدمت إسماً على آخر، وضـعت لقب العائلة، كل مرة تظهر حسابات لأناس كُثر، لكن صورهم تقول أنه ليس هو بالتأكيد، صمتت قليلا ثم بحثت بالعربية، ظهر حسابًا شكت أنه صـاحبه، تحول شـكها ليقين عندما رأت في خانة الأصـدقاء المشركين خالتها **(مي)** صديقة له.

لكن الصـورة ليست صـورته، إنها لغلاف كتاب، ضـغطت فكبرت الصـــورة في دائرتها، كتاب ، بالأحرى رواية، العنوان ثم كلمة رواية ثم اسمه، **(أحمد السعيد)**، دخلت إلى الحساب كان عامًا بلا قيود على تصـــفحه، معظم منشـــورته عن حضـــور حفلات أدبية ؛ وغنائية، مناقشـات لكتب وروايات، صـورة مع أصدقاء له على المقاهي وأبواب المعارض الفنية.

من هذا الرجل الذي لا أعرفه، جانب آخر منافي لكل ما تخيلته أو توقعته، في بيتهم لا يوجد أثر لكتاب ســـوى الكتب الدراسية، لا صور سوى لأمها وهي معهم في رحلات مختلفة، تخيلت أمها بغضــبها الذي تعرفه وهي تلقي بكل ما يخص أبيها في صندوق القمامة تحت الشجرة العتيقة أمام باب العمارة.

كان نبيل يســـألها كل حين عما إذا كانت قد توصـــلت أو تواصلت مع أبيها، وعندما عرف انها أخيرًا ستقابله في شارع المعز اعتبر ما حدث إنجاز كبير، أوشك على ضـمها إليه لولا أن دفعته برفق في صدره **وهي تهمس :**

- "الناس" !

٥

ومرت الأيام كما تمر دائمًا رغم إحساسنا الشخصي ببطئها أحيانًا وتسارعها أحيانًا أخرى، لم تفكر يومًا في المجيء إلى هذا الشارع التاريخي، لم تطأ قدماها هذه البقعة من الأرض من قبل، وعندما فعلت كانت تخطو على الأرض برقةٍ، لاحساسها أنها تمشي على طريق مشى فيه قبلها أناس كثيرين، ورغم كل ما حققوه صاروا الآن مجرد أسماء في كتب التاريخ، فكرة في حد ذاتها تبعث على التواضع أو العدمية، أو حتى على البحث والتأمل في الجدوى من الحياة كلها.

اقتربت من المقهى الذي ذكره، تفحصت الجالسين، وفي نفس اللحظة رفع رجل ممتلئ عينه عن كتابه وينظر ناحيتها، ربما ثانية أو ثانيتين **ورفع يده بإشارة تعني :**

- **"أنا هنا"**، وابتسم.

تخطت المقاعد فقام واقفاً، تفكرت في هذه اللحظة، أن كانت ستحضنه أَم تكتفي بالسلام، سترسم ملامح العتاب أم الغضب، ولكنها وجدت نفسها تسلم عليه بهدوء كصديقً قديم، جلس وقد خلع قبعاته ووضعها على الكرسي الفارغ بجواره،

كان عليه أيضًـا حقيبة جلدية خمنت هي أن تكون ممتلئة بالكتب أو الأوراق البيضاء والأقلام الملونة كما تتوقع من كاتب.

هالة تقابل والدها الذي لم تره من فترة طويلة

كان غلاف الكتاب مرتفعًا لأعلى نتيجة الضــغط عليه، لذا لم تتبين العنوان جيدًا، فقط رأت ظل أحرف كلمة **(القاهرة)**، هي حقا قاهرة، ليس فقط لمن حاول غزوها ولكن أيضًـا لأبنائها

الذين يعانون الزحام والعوادم، لما يحب **(نبيل)** هذه المدينة إلى هذا الحد؟ ويرفض بعنفٍ فكرة العودة إلى هدوء محافظته التي تبدو في الصور رائقة وجميلة.

رحب أبيها بها مرارًا، بعد وصلة من الصمت سألها عن أي المشروبات تُحب، تحيرت ربما هو السؤال الوحيد الذي لم تحسب حسابه، **لكنها نطقت بما حضر أولاً إلى عقلها:**

- "شاي أخضر"

لإحساسها بإنتفاخ في القولون من فرط توترها نقل طلبها للشاب الذي يمر بين المقاعد بخفة بالغة، يحمل الأكواب من أمام المنتهين ويأت بالجديد لمن جلس حديثًا.

الجالسين خليط يبدو عليهم من مظهرهم أنهم أدباء مثله وعشاق، أستاذ يشرح لطلابه تاريخ المكان، أنتبهت له لكنها لم تميز شيئًا مما يقال، فعادت بتركيزها إلى الرجل الجالس أمامها، له درجة صوت مألوفة على أذنها كلما تحدث، ربما تتجلى أحيانًا في حنجرة أخيها حسام، ولكن الأمر لم يوقفها قبل الآن بطبيعة الحال، بدا هو في محاولةً لكسر الصمت بينهما بإخبارها بأسماء ما يحيط بهما من مبانٍ تاريخية، توقف ثم سألها عن أخبار الدراسة، ردت أن الأمور بخير، سألها إن كانت أمها تعرف أنها هنا الآن فإجابة إيماءة بالرأس دون صوت أن لا.

أتى الشاي، تركها تشربه في سلام، يعطي لها وقتها لتجمع شـــتات نفســـها، ويســـاعدها في تهدئة توترها، انتهت وتركت الكوب في مجلسـه الزجاجي، وضـع الكتاب بجوار قبعته، نحى الأكواب جانبًا، اعتدل في مجلســه فبان حجم بطنه الكبير أكثر، غضت طرفها سريعًا كأنما تطلعت إلى منطقة محرمة، **قال** :

- عارف إن عندك أسئلة كتير، وعتاب وغضب.

هزت هالة رأسها بإشارة ليس لها معنى محدد، **فقال أبوها :**

- أنا وأمك كنا زملاء في كلية الهندســة، تبادلنا الإعجاب، واللي تحول لقصـــة حب جميلة، كانت بين الزملاء، اتجوزنا قبل التخرج بسنة، التسعينات كانت أجمل سنين حياتنا، ســـافرنا أوروبا ولما رجعنا، اخترت إني أهتم بالعمارة البيئية.

شـــعرت هالة أنها ســـمعت هذه اللفظة من قبل، ظهر في عينيها الفضول، **فقال أبوها موضحًا :**

- نهج في التصـــميم يهدف إلى تحقيق التوازن بين المباني والبيئـة الطبيعيـة المحيطـة بهـا، بحيـث تكون المبـاني صـــديقة للبيئة، وكمان تهدف العمارة البيئية إلى تقليل الأثر البيئي السـلبي للبناء والإسـتخدام من خلال تقنيات

التصميم المبتكرة، واستخدام المواد المستدامة، وتحقيق كفاءة الطاقة.

سكت قليلاً ثم قال :

- مش عاوز أدخلك في تفاصيل هندسية لكن مدرسة جديدة بدأت في مصر والعالم مغايرة للنمط السائد، ومفيش عليها طلب، أمك ظهر فيها جانب كان مخفي طول الوقت اللي فات، ذهبت الرقة وحل محلها عنف واندفاع وصوت عال طول الوقت تقريبًا، وقتها كانت حامل فيك، عشان كدا حاولت الإستمرار، اعتقدت أن الزمن قادر يصلح ما بينا، كنت بتظاهر أحيانا إني عدلت عن فكرتي، بقبل بمشاريع عمل تقليدية، كنت بعمل ده باحساس أني بخون نفسي، إني أصنع مربعات من الطوب والخرسانة كنت شايف فيه إجرام في حق الإنسان والبيئة، لكنها باختصار أمك كانت بتهدم في كرامتي وثقتي بنفسي بشكل يومي، صبرت لغاية ما جه أخوكي **(حسام)**، وبعدها مقدرتش أستمر في الإدعاء، وقتها فكرت إيه الأفضل مع إستحالة الاستمرار والعيشة ما بينا، وفكرت إن وجودكم مع أمكم مهم، هي الأقدر

على رعايتكم، فسبت لكم شقة الزمالك وسافرت أوروبا تاني، لكن كان قلبي هنا في القاهرة التاريخية، فرجعت، بنفذ أفكاري في العمارة البيئية اللي البعض يراها غير عملية وأنا شايفها إمتداد لتاريخنا ومتألفة مع بيئتنا، وفي نفس الوقت بمارس الكتابة بروح الهاوي.

لم تكن تعلم حتى حينها أن ما يزيد قليلاً عن ربع الساعة من الحديث البسيط سيغير قناعات سنوات مضت، موقفها الغاضب منه قد تخلخل.

أرادت أن تنفذ فكرة احتضانه التي لغتها عند بداية اللقاء، لكن هناك أشياء تفقد المعنى لها بمجرد انتهاء أوانها.

فكرت أن الحل أن تقف في منتصف المسافات ما بين أبيها وأمها، وأن هذا تاريخ لا يعنيها، لذا ستفاتحه بما جاءت من أجله، أخبرته سريعًا عن نبيل، وأن أصوله من الفيوم وأبيه رجل متمسك بالعادات ويريد أن يكون جليسه رجل مثله، سكت أبوها، ثم سعل خفيفاً **وقال:**

- لك منى كل المباركات والتبريكات، لكني لا أستطيع الحضور، لن أدخل هذا المكان الذي يذكرني بسنوات جاهدت طويلاً كي أنساها.

رغم توقعها رفضـــه إلا أن الخيبة كانت قوية، قامت واقفة فلم يطلب منها الجلوس، بل قال جملة قصـــيرة بمعنى أنه متاح للدردشـــة في أي وقت وينتظر صـــور الخطوبة على رســـائل الهاتف، خرجت من بين مقاعد المقهى وهي تجاهد كثيرًا كي لا تفلت دمعتها، تمشـــي فيضـــرب كعب حذائيها البلاط الأســـود المفروش ككسوة لأرضية الشارع، بهذا تكون قد كسبت رجلًا وخسـرت آخر، تخيلت كيف سـيتلقى **(نبيل)** هذا الرفض، مؤكد أنه سيتكلم بصوت عالي، ويضرب الطاولة التي أمامه بقبضة يده، ستحتد ملامحه كثيرًا وهو يتكلم عن أبيه المستبد بالرأي.

ارتفع آذان المغرب في المســـاجد العتيقة، فدعت الله أن يكون نبيل أكثر هدوئاً عما تتصوره الآن.

٦

نبيل الذي لم يكن يدري عما حدث شـــيئاً اتخذ طريقه إلى الفيوم، يتخطى بمهارة ســيارات الأجرة البيضـــاء المســـرعة، مجرد مرآها يُشعره من الآن أنه ترك القاهرة إلى الفيوم، كم هو ثقيل هذا الطريق على روحه، هذه الصحراء تشعره بالإختناق، حاول إضـــاعة الوقت في التحضـــير لما ســيقولوه لأبيه، عندما يفكر فيه ترتســم صــورة أبيه كاملة أمامه، ربما هو الآن يجلس بـالبيت معطياً اومره للجميع، أو عند زوجتـه الثـانيـة، فهو في ســـعـادة كبيرة منـذ ان أعطتـه مولودهـا الأول ذكراً، والـذي أسماه **(أحمد).**

ينتهي الطريق الصحراوي الطويل لكن الوضع أسوء حالاً عندما صــار على الطريق الترابي المؤدي للقرية، أول ما يقابله تلـك الرائحـة المقيتـة، لمحطـة رفع وتكرير ميـاه الصـــرف الصـــحي، التي تبرع أبوه بأرضـــها، لأهل القرية، بعدما كانوا يصـرفون فضـلاتهم على الترعة الرئيسـة، التي تمر بمنتصـف القرية وتغذي الأرضـــي الزراعية حولها، وهو الفعل الذي رآه هو أحمق، لأن للناس حكومة تخدمهم وتلبي احتياجاتهم، ينتهي من ســور المحطة العالي ويتخذ جهة اليمين، يصــير في مقابل المدرســـة التي تبرع بها جده أيام الملك، ثم جاء عبدالناصـــر

وألغى الاســـم القديم وصـــارت (مدرســـة الحرية الابتدائية المشـــتركة)، ولكن أباه وبنصـــيحة من محاميه رفع دعوة على وزارة التربيـــة والتعليم وكســـبهـــا ليرجع الاســـم القـــديم (مدرسة زيدان الروبي الابتدائية).

يتطلع المارون بجواره للسيارة في فضول وهم يوسعون له الطريق، يضـــيقون أعينهم ليرون من خلال الزجـــاج المقفل، وعندما يعرفون أنه هو يقولون: **"إزيك يا دكتور نبيل"** يرفع يده يحيهم وهو صـــامت، يقترب من بيتهم، يبطئ ويدخل من تحت البوابة الرئيســـية المفتوحة دائمًا، والمتصـــلة بســـورً متهالك في معظم جوانبه، يصـــير في الفناء الواســـع أمام الباب، في الفناء الجرار الأحمر الضـــخم ومحراثه الحديدي والآلات زراعية حديثه آخرى، بجوار تلك القديمة والتي لم تعد مســـتخدمة مثل النورج ومحراث البقر، حتى عربة الحنطور واقفة تتآكل ببطء عبر سنين، لا تنفع لشـيء إلا لأولاد أخته الكُبرى عندما يأتون، يركبونها وهم يصـــيحون بعنفٍ في حصـــان لا وجود له كي يسرع، ثم يصـهلون هم أنفسهم بدلاً منه.

سأل أباه مرة وكان أصغر سنًا بما وكان وقتها لازال الكلام بينهما متاحًا، لما تحتفظ بتلك الآلات البالية فرد أبوه ببســـاطة، دي بركة في البيت يا إبني .. "بتفكرني بأيام أبويا وجدي".

يوقف سيارته مكان سيارة أبيه المرسيدس القديمة أسفل شجرة النبق العالية وتكعيبة العنب الممتدة لمسافة كبيرة، لا يعلم يقيناً لما يفضل كل الوجهاء هذا النوع تحديدًا، يراه بعض المارة فيأتون مبادرين مقدمي أيديهم للسلام.

نسي الأسماء أو تناساها، يرد على الجميع بالصيغة العامة ذاتها **"أهلا يا حاج".**

يتجه بوجهه شطر البيت، وجهته مغطاة برسومات قديمة من أيام سفر الأجداد لأداء فريضة الحج، يصر أباه على الإحتفاظ بها الكيان الضخم العتيق، والذي يسميه السرايا، رغم أنه مكون من طابقين يفصل بينهما سقف من خشب، تنثر على المجلس أسفله مسحوق أبيض لا ينقطع، حتى من كانوا يعملون عندهم خدمًا يومًا ما، هدموا بيوتهم القديمة وشيدوا بيوت حديثة من حديد وأسمنت، تنظر إحدى إخوته بإهتمام لترى القادم، أنها الصغرى **(مها)**، عندما تميز أنه هو تنشر الخبر في البيت بصوت عال، وعندها تراه الكبرى جيهان فتبتسم في سعادة، يدخل فيحضنونه في حميمية عظيمة، تسأله **(مها)** بالإنجليزية ممازحة عن حاله، يضحك وهو يجيب.

سأل عن أمه، يعرف أنها في حجرتها لا تبرحها بسبب مرض عضال، ويسأل جيهان عن زوجها علي، وعلي هو إبن

عمه الذي يكبره بسنتين فقط، اختار أن يمشي على الخط المرسوم له من قبل عمه العمدة بلا أي إنحراف.

فمنذ أن كان طفلاً كان مكوثه مع (نبيل) وإخوته أكثر من مكوثه في بيت أبيه، كان قريبًا من (نبيل) في أوقات ومختلفين في أخرى أنهى تعليمه المتوسط، وتزوج نعمة الإبنة الكبرى التي يعتبرها العمدة أكثر أبنائه حكمة ورجاحة عقل، تكلف أبوها بالتحضير للزواج بكل تفاصيله قائلاً لأخيه عندما قال أن عليه أن يتحمل تكاليف ابنه **(علي)** كما تقتضي التقاليد، **قال العمدة**:

- الاتنين ولادي يا حاج محسن.

ظل نبيل وعلي على صداقتهما رغم خلاف الطباع حتى فرق بينهما تمامًا وبدون ضغينة دخول نبيل كلية الطب في القاهرة، بينما ظل علي كما هو يصحب العمدة كظلٍ له، سائقه الخاص وحارسه الشخصي وكاتم أسراره.

دخل نبيل إلى أمه.. سعادتها غامرة كالعادة عندما تراه، تتحرك بجزعها فقط فوق السرير، تريد أن تقوم بشكل كامل، تخونها قواها، يقسم عليها ألا تتحرك، يقترب منها مسرعًا ويضمها إلى صدره، ثم يقبل رأسها ويشم رائحة كاد أن ينساها،

بجوارها الراديو الصغير والمسبحة، حجاب للصلاة وزجاجة المياه للمضمضة عند كل صلاة.

تسأله أسئلة كثيرة عن حاله وعمله وصحته وطعامه، أسئلة تحتاج أيامًا للإجابات، هو جاء لشيء آخر، يريد مباركتها لخطوبته من **(هالة)**، ترتد للوراء وتسكن عندما يحكي لها، كانت تحضر مجموعة من البنات في عقلها له، انتقتهم مرارًا في بالها، متباين في الشكل واللون، لكنهن جميعًا جميلات وأولاد عائلات تعرفهم منذ سنين، تتابع خطواتهم في الحياة والتعليم، تطمئن من بناتها ونسوة أخريات على سلوكهن، تسقط من إعتباراتها من تأت بفعل لا يعجبها، تضيف أخريات، ولكن نبيل نسف كل هذه المعادلات ومسح جميع مخططاتها العقلية بضربة واحدة، يريد أن يتزوج من مصر.

كيف تطمئن لسلوك من اختارها وسلوك أمها من قبلها، كل هذا يمكن تداركه أو تجاهلها، ما لا يمكن تجاهله وكان كحجرٍ على صدرها فكرة أن لا ترى أحفادها التي أنتظرتهم طويلاً، كأمنية أخيرة لها في الحياة تمنت أن تحمل أبناءه بين يديها، ولكن كسيدة مجربة ذات خبرة في الحياة عرفت **أن** لا فائدة من النقاش معه، كان قد وصل لدرجة الهيام التام بهالة، إذاً لتظهر السعادة والموافقة، يريد منها أن تكلم أباه، لا يريد

مالاً، فقط حضـــوره مع بعض الرجال، أمســـكت بمســـبحتها الكهرمان، طرقت الحبات بعضها فوق بعض بصوت مسموع، ثم قالت: كله على الله يا إبني.

يأت المســاء ولم يأت أبيه، يخمن أنه عند زوجته الثانية فلا يسـأل عنه ولا يهاتفه، يحل الليل فيصـعد إلى حجرته القديمة في الطابق العلوي، يظل ممسكًا بهاتفه يعبث به حتى ينام.

٧

استيقظ **(نبيل)** بسبب صوت العصافير الكثيرة على شجرة النبق، أمام نافذته البحرية مباشـــرة، يأخذ وقتاً في التفكير حتى يعرف أنه في حجرته القديمة ببيت أبيه، قام ومشـــى بقليلٍ من التخبط حتى صـــار أمام النافذة، نظر وتطلع للحقول الممتدة أمامه، رأي فلاحون مبكرون يســـحبون بهائمهم ورائهم، فكر أنهم سيظلون هكذا غارقين في الطين الى الممات، بعد أن يؤدي إصابتهم بالبلهارسيا الى داء الكبد، ونزيف المريء.

تأمل المدى أمامه وشـــعر كم هو بعيد عن القاهرة، توقفت عصـــفورة أمـامـه لثواني ثم طـارت، شـــعر بحنق على كـل العصـافير لما تحدثه من جلبة صـباحية هائلة، يتذكر رجلاً كان يأت فيما مضى يلبس قبعة ويحمل بندقية صيد بماسورة طويلة، تملُّئه الإثـارة عنـدمـا يراه يطلق المقذوف فتنزل العصـــفورة ترفرف على الأرض حتى تســـتقر، ورغم ســـخرية الرجال لشـــعورهم أنه رجل بلا عمل حقيقي، منه إلا أنه كان معجبًا به أشـــد الإعجاب، حتى أنه كان يتبعه مع صـــديق له حتى يغادر القرية، عاد إلى سريره وأمسك بهاتفه، ضغط على اسم **(هالة)** لكنه كان مغلقًا، مد يده من الشباك وألتقط عدة صور له وأرسلها لها بإنتظار أن تفتح هاتفها وتراها.

بالأمس وعدته أمه بالكلام مع أبيه، سـيأخذ موافقته ثم يرحل لإستكمال باقي الترتيبات، وسيأتي العمدة مع من اختارهم من الرجال في الموعد المحدد، أما أمه فبالطبع لن تستطيع الحضور، ضحكت مها **وقالت**: "صور كتير وأبعت على تليفون أختك عشان نفرح بيك يا دكتور"

ظل في حجرته حتى بعدما سمع صوت محرك سيارة أبيه بالأسفل، ربما ظنوا أنه ما زال نائمًا فلم يريدوا أن يقلقوه، أما هو فكان يحضر في عقله إجابات لأسئلة أبيه المحتملة، عن هالة وتعليمها وأهلها، عن عمله وخطته لما هو قادم.

عندما ارتفع أذان الظهر من مأذنة المسجد العالية وصل لأنفه رائحة تحضير الطعام، كان لأمه نفساً خاصا نقلت بعضه إلى أخته الكبرى فاطمة.

بعدها بوقت قصير نادت **(مها)** عليه لينزل، نزل وهو يبتسم في وجه الجميع ابتسامة مجاملة.

على سفرة الطعام القديمة ذاتها كان الجميع حاضرون، أبوه على رأسها كعادته، أمه على كرسيها المتحرك، أمامها طعامها الخاص بها، سهل البلع والهضم كما أوصى الأطباء، قبل رأسها وجلس قبالة أبيه، تجلس جيهان وزوجها، الجميع يتصرف بحرص زائد، في حضور الأب يسكت الجميع إذا سكت، لا أحد يقوم حتى لو شبع إلا بعد إنتهاء الأب، ربما فقط **(مها)** التي تحتل مكانة خاصة، هي رسول الباقين له إذا ما طلبوا شيئًا، أو دبروا للخروج من البيت، وبينما الجميع يأكلون في صمت توقفت هي عن طعامها فجأة ونظرت لنبيل لحظات **ثم سألت:**

- نبيل .. انت ليه ملبستش نضارة عشان تبقى دكتور زي باقي الدكاترة؟ أنا كدا حاسة إن ناقصك حاجة على الدكترة على فكرة.

ضحك الجميع حتى الأب الجاد معظم أوقاته، وهو يقوم لغسل يده، انتهى فجلس على مقاعد حجرة المسافرين مذهبة الجوانب، فقام نبيل، ورجعت الأم الى حجرتها، وانشغل البنات برفع بواقي الطعام والأطباق، واستأذن علي عمه في الذهاب إلى ما أمره به.

انتهى نبيل من غسل يديه فجاء وجلس في المقعد المجاور، تشاغل بتقليب قنوات التلفزيون عبر مده الريموت للأمام، لم

يستقر على شيء فأطفاه ونظر الى عيني الثعلب المحنط، كأنما لازال حيًا، ويوشك على القفز من فوق الطاولة، خطف نظرة إلى أبيه والذي يصر على إرتداء هذا الجلباب البلدي، يشعر أنها عبء على مرتديها، تكلفة عالية في غير موضعها، كان أبوه كحركة ملتصقة به يرفع ذراعيه في الهواء فترتد أكمامه للوراء، وتظهر ساعة يده الغالية والفريدة الطراز، ويفوح عطره المميز.

أنزلهما ثم اليمين إلى رخامة طاولة المنتصف ليسحب سيجارة، وأشعلها ثم تركها تبعث دخانها بين اصبعين من كفه، و حينها أفرغ عادمها في صدفة البيضاء أمامهما.

الفراغ بحر رمال عظيم يبتلع محاولات التواصل الإنساني بينهما، يحتاج لجهد كبير للبدء بالكلام، فكر أن يسال عن **(أحمد)**، أخيه الصغير غير شقيق، من الزوجة الأخرى، لكن ربما يترك هذا إنطباعًا سيئًا لدى الرجل فيحسبها سخرية، فمن المعلوم للجميع أن الفرقة الغير معلنة بينهما كان من أحد أسبابها زواج الأب من تلك السيدة الأخرى، لمح أباه بذكائه المتقد حيرته، تركه حتى اكتفى من تعذيبه **ثم قرر الكلام:-**

الحاجة قالت لي أنك اخترت بنت الحلال.. طبعاً كان نفسنا نختار معاك حد من نواحينا، نعرفه ويعرفنا، لكن طبعًا إحنا فلاحين ومنفهمش في اختيارات الدكاترة ولا ذوقهم.

يلمح نبيل قدر السخرية العالي في كلامه، فهذا المتحدث يمتلك من المال السائل منه والمتجمد ما لا يمتلكه أي طبيب بالقاهرة، وعندما تزوج سواء الأولى القعيدة بالداخل أو الجديدة بشقة مدينة الفيوم اختار من يجعلن الناظر يغض بصره استحياءًا من هيبة جمالهن.

حاول إيجاد كلمات محايدة لا تعطي أي انطباع بالتحدي أو فهم المغزى من عبارته، ليكن التحدي له فيما بعد، عندما لا يكون في حاجة إليه، ربما هذه هي آخر المرات التي سيحتاج إليه فعلاً، **فقال**: نصيب بقى يا حاج وحضرتك سيد العارفين. كأنما ينهي أباه النقاش العقيم **قال**:

- شوف إنت محتاج إيه وأنا معاك، فلوس تحت أمرك، رجالة تحت أمرك برضوا.

حانت اللحظة المهمة أخيرًا **وقال نبيل**:

- كل اللي عاوزه من حضرتك الرضا وإنك تشرفني بحضور الإتفاق.

أزاح الأب كم جلبابه الواسع ليكشف عن ساعته نظر فيها، هي رســـالة أن وقتهما معا قد انتهى، فقد حان وقت قيلولته، رد كمه الى إستطالته **ثم قال:**

- روح إنت رتب أُمورك وبلغني بالمعاد.

فكر وقتها أن ينزل على يده يقبلها، ولكن تراكمات ســـنوات مضـــت منعته، هب الأب واقفًا، فوقف هو الآخر، تحول الأب ناحية حجرة نومه، **فقال بعد جهد** :

- شكرا لحضرتك

لم ينظر الأب وراءه وأكمل طريقه إلى حجرته تخيل أنه ســـمعه قبل أن يغيب في عتمة حجرته يقول كلمته المعهودة لمن يقول له شكرًا : الشكر لله.

٨

لم يستطيع الصبر الى الصباح كما أوصت أمه، بل قاد سيارة والده القديمة للقاهرة ليلاً، بيدٍ يمسك مقود السيارة والأخرى يجرب مرارًا الإتصال بهالة.

هالة لم تكن تنوي إزعاجه برفض أبيها، ولا تريد الكذب عليه، لذا اختارت الهروب لحين حضوره، هو ما بين الإحساس بالنصر لموافقة العمدة على الحضور للقاهرة والغضب من هاتف هالة المغلق، نسي في غمرة العاطفة أخذ رقم صديقة لها، آخر فكرة وردت في رأسه الإتصال بأمها كآخر الحلول.

في الليل لا يرى تفاصيل الصحراء ولا الجبال، لا يرى فيه سوى لمبات السيارة العابرة تضيئ وتطفوا، لذا يشعر كما لو أنه يعبر نفق مظلم الى مدينة النور.

حانت منه نظرة للكرسي الذي بجواره فرأى العلبة الخشبية المزخرفة، أو **(شكمجية)** كما سمع أمه تسميها دائمًا، علبتها التي وضعت له فيها نصف ما تملك من ذهب، أقسمت عليه أن يأخذه بعد رفض وجدل طويل، وقسم آخر خاص بأن لا يخبر أحد إلا بعد موتها بذلك.

انتظرت هذا اليوم طويلاً وخططت له، ربما لن يعجب عروسته تلك التصميمات القديمة، ولكن لتريها لأمها، مؤكد أنها ستقدر الصنعة الأصيلة هذه، ولتكن في حل من الأمر.. يمكنك بيعها واستبدالها، تكسرت ملامح وجهها فيما يبدو أنه استنكر الفكر بل استبشعها، **وقال:**

- دهب الحاجة حورية مش للبيع. وابتسما معًا.

سلم عليها سلام مودع كما سلم على البنات من قبلها وقاد سيارته ومشى، تكبر الأهرامات أمام عينيه مضاءة بألوان مبهجة، رغم أن الأهرامات ذاتها لا تثير داخله أي مشاعر وطنية أو تاريخية مثلما تفعل في الأخرين، إلا أنها تعني انتقاله جغرافيًا وزمنيًا من بيئته القديمة التي يعمل جاهدًا على محوها من عقله، إلى البيئة الجديدة التي لا يرى نفسه سوى مزروعاً فيها بكل قدراته النفسية والأخلاقية، والزواج من هناك هو أولى المحاولات لتثبيت قدمه في هذه البيئة.

لم يذهب لشقة المريوطية، بل قاد سيارته إلى الزمالك، وقف أمام العمارة التي يشي مظهرها الخارجي بأُبهة قديمة، أبواب ضخمة ونوافذ طولية، وبروزات متعددة، حديقة احتلتها **(ست الحسن)** وصعدت على السور حتى ابتلعته تمامًا.

أمسك هاتفه وضغط على اسم أم هالة :

- "ألو.. مساء الخير يا هانم.. أهلا بحضرتك.. أستسمحك تبلغي هالة إني تحت البيت".

مهندسة سليلة مهندسين، لها مكتب استشاري، يُشرف على مواقع عدة، ناجحة وتطمح لمزيدٍ من النجاح والتفوق.

نزلت هالة.. وقد ظهر على ملامحها أثر المفاجأة، فتح لها باب السيارة الموازي للرصيف، رفعت يدها بالتحية وهي تمر سريعًا من أمامه، شعرها الذي يتطاير ورائها جعله يسقط جزء من غضبه، اتخذت مكانها في السيارة، بررت غلق هاتفها بأنها اعتقدت أنه ما زال في الفيوم، كان فرحًا بما أنجز هناك، لهذا حاول أن يتخطى كل ما حدث.

ثم أشار لها أن تفتح العلبة التي أمامها على تابلوه السيارة، ترددت للحظة.. ثم مدت يدها وأمسكت العلبة، تأملتها من الخارج بإنبهار مخلوط بالإستغراب، فتحتها وتجمدت ملامحها لثوانٍ، مهما كانت أنثى رصينة الإنفعالات وتمتلك الكثير كهالة، إلا إنها حتمًا لن تتماسك أمام هذه الأشكال الذهبية واللازوردية البراقة النائمة في العلبة، تركها بدون مقاطعة منه تعيش جميع انفعالاتها حتى التشبع، هو فقط ينظر لها باسماً، أخيرًا أغلقت العلبة ونظرت له بدهشة بالغة، **قال:**

- "هدية الحاجة حُورية لك... "

كان هناك في أعلى الأشجار طيور نائمة، شعرت أنها لو صارحته بما لديها سيصرخ غضبًا لدرجة توقظ الطيور ويجعلها تطير بعيدًا هاربة.

سـألها عما فعلت خلال اليومين الماضـيين، عرضـت عليه أن يصـعد معها إلى شـقتهم للحديث، ولكن ذلك سـيعني معرفة الأم بذهابها لمقابلة أبيها، أخيرًا قالت:

- "حاجات كتير... النهاردة تروح تريح من السفر، وبكرة نقعد مع بعض في مكانا المعتاد ونتكلم"

شعر بالغضب، وصار على يقين بأن شيئًا ما لا يسير كما هو مخطط له، منعه إنفعاله من الحديث، ودعها وذهب لشـقته، في اليوم التالي اسـتيقظ مبكرًا كعادته ولكنه لم يقم من سـريره، كان في انتظار أتصال (هالة) للخروج.

مكـانهمـا المعتـاد هو مقهى متمـاهي مع مطعم، حـددوا لأنفســهم على غير اتفاق معلن الطاولة الأخيرة ما قبل مياه النيل، سـيأخذ هواء النيل وموجه كلامهم بعيداً فلا يسـمعه أحد مهما كان حميمياً أو مليئاً بالإنفعال.

كمحاولة منها لإستجماع شتات نفسها طلبت منه أن يحكي تفاصـيل رحلته، لكنه أصـر على أن تحكي هي أولًا، أكلته الإحتمالات ليلاً، لم ينم إلا بقرص منوم، باقي من أيام السـهر والأرق، ومع ذلك استيقظ مبكرًا، جاء الجرسون فسكتا تلقائيًا،

سألهما عما يودا أن يشربانه، فكر أن قهوة ثقيلة ستمحو بعضاً من صداع رأسه.

استطردت في الحكي بادئة من محاولتها البحث عن رقم للإتصال، وعن المكان الذي اختاره أبيها للقاء، جاء الجرسون فسكتت مرة أخرى، ذهب فأكملت وهو يضع ذقنه على ظهر يده ويستمع وأمامهما أكواب قهوة لم تُمس.

أخبرته ما حدث من أمر أبيها، حياته وما قال، كل شيء حسبما تذكره الآن، اشْتدَّ غَيْظُه لدرجة جعلت هواء النيل كله لا يدخل إلى رئتيه، حلمه يتهاوى، ضرب الطاولة أمامه بقبضته في غضب، تقلقلت الأكواب في أماكنها وانسكب بعض ما فيها على الطاولة، سار كدمعة سوداء ناحية الحافة ثم سقط أرضًا، وغاب في عتمة ما تحت الطاولة.

تفكر أن تبثه كلمات العزاء، وأن حتمًا هناك حلول لكل معضلة في الحياة، ولكن في نوبات غضبه هذه يبدو لها مرعبًا، ترجع للخلف في عقلها خطوات، تتساءل إن كان **(نبيل)** هو الشخص المناسب لها حقاً، ولا تصل بعد إلى إجابات.

كأنما قرأ ما في عقلها، فبدأ يهدئ من نفسه ومن عصبيته دون تخل عنها، قال إن هذا الإنفعال وما سبقه وما سيليه منبعه

حبه الجنوني لها، تحطمه فكرة فقدها، ابتسمت في صمت لتمرر الأمر.

بدا أنه يفكر مليًا ويوازن الأمور في عقله، أخيراً فكر أن لا حل غير وضع **(حسن الروبي)** -يقصد أبيه- أمام الأمر الواقع.

يأتي فيجد المهندسة سلوى، ربما بعض إخوتها أو أقربائها، ولكنها بالطبع هي من ستتولى الحديث، سيغضبه هذا، ولكنه سيكون مشغولاً بإنهاء الأمر، حينها لا فرار من الإتفاق، وبعدها لو أراد عدم الحضور نهائيًا فليفعل.

بدا كما لو أنه ارتاح لقراره، فطلب قهوة أخرى غير التي ترسب وجهها بالقاع.

أســـبوع أو يزيد قليلاً، كانت الفترة التي احتاجها **(نبيل)** و**(هالة)** في الترتيب لمجيء أبيه لمقابلة أهلها، تحدثا عن موعد مناســـب للطرفين المشـــغولين بطبيعة حياتهما معظم الوقت، عن أي محل للحلويات أفضل لشراء ما ستقدمه المهندسة سلوى للضـــيوف، في أول الأمر أربكـه هذا الســـؤال من **(هالـة)**، فمن حيث جاء هناك عادات وتقاليد تحكم كل الأمور، فما إن ينتقل الضـــيوف من قرية إلى أخرى يصـــير لزامًا تقديم طعام لهم، لكن في القاهرة تتغير التقديرات.

فكر بينه وبين نفســـه قبل أن يتخطى هذه النقطة إلى غيرها على وجوب أخذ ضـــيوفه إلى أحد المطاعم المعتبرة بعد إنتهاء اللقاء، وبحث وأستقر ولم يخبر هالة بهذا ربما إلى حين.

تبادل الجميع اتصـــالات عديدة، طلب في إحداها نبيل من أبيه إحضـــار أحدى البنات ولتكن **(مها)**، لكن الأب **قال كلمته** المعهودة في حالات الرفض:

- الجيات أكتر من الريحات .

ثم أعقبها بتبرير:

- أنهم جميعًا جنب الحاجة في حالة حدوث طارئ لا قدر الله.

سـيأتي الرجال في سـيارتين، سـيقود إحداهما إبن عمه **(علي)**، لذا لم يجد **(نبيل)** صـعوبة في إرسـال موقع البيت في رسـالة هاتفية له، وعندما يفتحها علي وهو معتاد على ذلك سـتتحول أمامه القاهرة إلى طرق وخطوط وسـهم يشـير إلى البيت مقدرًا المسافة والوقت اللازمين للوصول.

انتظر نبيل على مقهى قريب من البيت، كان مكيفاً ومغلقاً، لكنه مشـبع بالرطوبة، كطبيب تخدير لا تخلو حقيبة يده الجلدية الصـغيرة من أمبول مهدئ، غالبًا من النوع الذي يعمل على تعطيل مستقبلات إشارات الألم التي تجري في الأعصاب في شكل موجة كهرباء، فلا يستقبلها المخ ولا يدري عن ألم الجسم شـيئًا، وفي محاولة منه لتقليل توتره قام الى حمام المقهى، وقام بحقن نفسه بواحد ملي.

وهو جالس على قاعدة الحمام الرخامية الباردة، عاد إلى مكانه، وأخذ عقله يرسم صورة أبيه يجلس مصرًا على جلبابه الصوفي مفتخرًا به، حوله رجاله الذين ينتظرون دائمًاً أي تلميح منه لتنفيذ أفكاره، أمام السـيدة المهندسـة، بلبسـها العصـري وأناقتها المبالغ فيها، وشعرها المطلق دون قيد، يا له من وضع صـعب غير متجانس، من المرات القليلة منذ سـنوات التي يلجأ فيها إلى الله، فدعاه مخلصًـا أن يمر الموقف بسـلام، يبدو أن

المهدئ قد أتى مفعوله فوجد نفسه يسترخي في مقعده الجلدي الضخم، ويقول لذاته أن ما يريده حتمًا سيحصل عليه رغم أنف الجميع.

رُبما أخذته سنة من النوم، عاد منها على هاتفه يرتعش وينزاح من تلقاء ذاته على زجاج الطاولة نحو الحافة، رفع مسرعًا ليرد: **(إنت فين يا علي)** أجابه على أنه في الموقع المحدد، خرج مسرعًا يعدل شعره بمرور أصابعه من خلاله.

ميز سيارة أبيه أولاً ثم سيارة عمه، رحب بالرجال كثيرًا وإتجه بهم إلى البيت، تطلع أبيه إلى واجهة المنزل حتى توقف بصره أمام رأس فينوس الحجرية تطل عليهم من أعلى فأكمل إلى المدخل، وفي المدخل كان الهواء أبرد.

بعث هذا أملاً في قلب **(نبيل)**، وبعد ضغطه على جرس الباب فتحت لهم السيدة التي تعمل في البيت والتي تسميها هالة **(دادا حليمة)** في الحقيقة هي من ربتها مع حسام، بينما الأم في مواقع عملها المتعددة.

أرشدتهم إلى حجرة الضيوف، ديكورات أكثر من أن تلم بها عين في مرة واحدة، فازات ورد وتماثيل ولوحات، إضاءة بألوان ومستويات عدة، فكر في شعور أبيه وهو الذي

يزين صالة ضيوفه رأس ذئب معلقة على الحائط، وآية الكُرسي على الحائط المقابل محاكة أحرفها بخيوط ذهبية على قماش أســـود وناعم، وبجوار التلفزيون فوق الطاولة الخشـــبية ثعلب محنط في وضعية الهرب.

ارتاح الرجال في صـــالون مذهب حديث الطراز فســألتهم عما يشـربون، فرد العمدة مبتسـمًا أن تمهلهم بعض الوقت، كان متأنقًا كما يفعل في المناســـبات، غطى عطره جميع الروائح الأخرى، ومن مفردات الأناقة عنده عصـــاته ذات رأس الأســد والمصنوع من العاج، ضرب بها أرضية سجاد الأرضية خفيفًا قبل أن يترك الأسد يرتاح فوق كتفه.

خرجت الأم ورائها إبنتها، حتى **(حســـام)** لم يكن موجودًا، يعرف أن حسام متحفظ على هذه الزيجة ولكن ليس إلى الحد أن لا يكون موجودًا، وقف الرجال للسـلام ورأى أبوه يتأمل السـيدة **وهو يقول لها :**

- أهلاً يا هانم،

ثم نظر إلى **(هالة) وقال:**

- أهلا بعروستنا.

سـلم عليها باقي الرجال في وجوم، وقد لمح على وجوههم استنكارا لا حد له.

رحبت بهم المهندسة سلوى ثم قالت أنها تواصلت مع اخواتها لكنهم خارج مصر هذه الأيام ولم ترغب في التأجيل ولأنها ترى نبيل وهالة في عجلة من أمرهم، وأن خير البر عاجله قالتها وضحكت لكن أحدًا لم يجاملها برد الضحك.

يعرف أن أباه يستطيع كتم مشاعره جيدًا، مدرب هو في جلسات تجارته وبيعه وشراءه الأرض أن يخفي ما يفكر فيه، لا يجعل وجهه مقروءًا لمن أمامه، لكن أعمامه وأبناء عمومته ظهر على وجوههم الصدمة بلا أي محاولة للمواربة.

قال الروبي كأنما يحاول الخلاص :

- "طلباتك يا هانم" ثم أعقب بقوله" وكلها مجابة حسب وعد الدكتور .. حيث أنه رفض أي تدخل مني، وقال أنا بس اللي أجيب للمهندسة هالة طلباتها"

ياله من رجل يطفح الذكاء من كل كلمة قالها في جمله الطويلة، لقد أشار عليها أن تطلب في نفس اللحظة أوصل اليها فكرة أن **(نبيل)** من سينفذ ما ستطلب، فإن لم يحدث فسيبقى هو في منطقة آمنة.

ردت المهندسة سلوى وهي تزيح من أمام عينها خصلة من شعرها المضروبة صناعياً بالصفرة :

- بلاش استعجال يا عمدة، إحنا بنتعرف عليكم.

لماذا شعر نبيل في لحظة ما أن هذه السيدة يروقها مظهر أبيه، أو أنه تراه قد خرج من مسلسل عن الصعيد، كان يقول مررًا لأصدقائه في كلية الطب أن الفيوم ليست صعيدًا، وأنهم في الصعيد نفسه يعتبرون الفيوم من الناحية البحرية للبلاد، ربما هي منطقة وسطى بين الجهتين.

ثم نادت الهانم:

- دادا.. لو سمحت هاتي حاجة نشربها..

أنزلت السيدة المحجبة أطباق عليها الحلوى التي اشتراها مع **(هالة)** وأعقبتها أكواب مستطيلة من عصير الفاكهة، وانسحبت في هدوء، وهي تنظر بشكل خفي إلى هالة بإبتسامة كأنما تشجعها.

- بدأت السيدة في تعديد مطالبها مؤكدة على ضرورة شراء شقة في منطقة راقية، وسيارة تليق بها، وذكرت ماركات صعب تذكرها لأواني الطبخ والأثاث.

أمسك العمدة بعصاته وضرب بها الأرض كأنما يضع نقطة آخر كلامهما لينهيها، **تنحنح ثم قال :**

- "والله الدكتور موجود.. يقول إذا كان يقدر على الشيلة يشيلها"

ارتبك نبيل، كان يمكنه التفاوض لكنه فضل إغراقه في الشبكة التي يراها كأفعى تلتف حول عنقه وتخنقه رويداً رويداً، إنه في النهاية طبيب وليس لصًا ولا مجرمًا، عقد الموقف أكثر أن **قالت المهندسة سلوى** :

- " بس إنت موجود يا عمدة وده إبنك الوحيد".

هب الرجل واقفاً، فوقف الرجال دفعة واحدة :

- "بس هو الوحيد"

نظر لنبيل بغضبٍ وقال:

- "ربنا يخلي الباقيين".

حاولت هالة التحدث لتهدئة الوضع، يمكن أن تتنازل عن أشياء كثيرة، لم يصل صوتها لأذن أحد، **قال نبيل :**

- "ثواني يا عمدة"،

ولكن العمدة خطى بعصاته أولاً ثم قدمه اليمنى خارج دائرة المقاعد ولم يعد هناك مجالاً للتراجع، ظهرت الحيرة

والغضـب على وجه الهانم، وعرفت هالة من أين يأت غضـب نبيل ولكنه هنا في حالة أبيه غضـب معتق، ويتم التحكم فيه وإخراجه حسب الحاجة، وليس عشوائيًا في حالة إبنه.

كأنما يسدل ستار هذه المسرحية العبثية **قال الروبي:**

- أنا شـايف إن عدم وجود الرجالة غير مؤثر، الدكتور موجود والهانم ممكن تكمل طلباتها.. ألف مبروك.

وانطلق خارجاً خلفه رجالة تحتك جلابيبهم الواسعة بأقدامهم بصوت مسموع.

نظرت (هالة) إلى أمها في عتاب وقالت :

- "مش ده يا ماما اللي أتفقنا عليه" .

لكن الأم لوحت بيدها وقالت :

- "مش شـايفه الراجل اللي معاه ملايين ومش عاوز يدي لإبنه منها حاجة.. أنا بعمل عشانك"

لكن (**هالة**) بكت ودخلت الى غرفتها ووراءها مربيتها.

بينما نبيل يهرول خلف أقربائه، وعند باب السـيارة رفع الأب كف يده كإشـارة قف في لمبة المرور، فتوقف يعرف أن أباه لم يدمر الجلسة لعلو سقف طلبات الأم، لكن الوضع نفسه لم يعجبه، يعرف ذلك ويعيه الجميع وليس هو فقط.

لذا حاول علي الكلام **فقال**:

- الناس دي مش شباهنا يا...

ربما كان سيقول يا دكتور، أو يا إبن عمي أوغيرهما ولكن نظرة من الروبي الكبير جعلته يصمت **ويذظر في إتجاه الأرض:**

- "بص يا دكتور.. دي حياتك وأنت تمشيها على كيفك.. بيتي مفتوح لك، لكن متتوقعش حضوري للقاهرة عشانك تاني".

أشار بيده فاتخذ الرجال أماكنهم في السيارتين، أدار علي محرك السيارة قال له عمه شيء ما فضغط على زر بجواره فارتفع زجاج السيارة إلى آخره، رحلوا ليجد نفسه وحيدًا بشارع في تلك المنطقة الراقية، وهو يراقب أوراق الشجر التي أسقطتها الدنيا بفعل الجاذبية الأرضية ويزيحها هواء المساء في صمتٍ تامٍ .

نظر إلى حيث شقة هالة لكنه توجه إلى سيارته وقادها لا يعرف إلى أين؟ فتح مسند الذراعين كانت علبة أمه وأمواله راقدة في أمان، الغضب يعميه من الجميع.

من هالة لصمتها وسلبيتها، من أمها الشرهة للمال، ولأبيه الذي ما صنع كل ما صنع إلا من أجل هذه اللحظة التي أتاحت له أن يتخلص منه للأبد.

يضرب على مقود سيارته بغضبٍ، فكر أن يقفز بها إلى النيل، ولكنه عاد وفكر أن الجميع لا يستحق منه هذا الفداء.

ثم استقر تفكيره أن لا تفكير قبل شرب كأسين يطفئا غضبه ثم بعدها يتخذ القرار.

١٠

ليكن لـذاتـه فقط، ذهـب إلى فنـدق الفيرمونـت القـابع على كورنيش النيـل والـذي يفضـــلـه عن غيره، تخطى التمـاثيـل البرونزية القبيحة في عينيه هذه الليلة، انفتح الباب الزجاجي تلقائياً أمامه، فضـربه في وجهه تيار مكيف الهواء القوي، وقف أمام موظفة الاستقبال الحسناء.

حجز حجرةً لليلتين متتاليتين، ووضـع علبة أمه في خزينة الحجرة وأغلقها برقمٍ سـري، ونزل من توه لبار الفندق، تخطى الراقصين وجلس على مقعدٍ مرتفع بلا ظهر قبالة البارمان.

مع صـــوت الموســيقى المرتفع لا يمكن التعـامـل بغير الإشـارات والإيحاءات، أشـار للبارمان على النوع الذي يريده، فصـب له الرجل كأسًـا، شـربه على جرعةٍ واحدةٍ وتذكر المرة الأولى له في مثل هذا المكان، ذكرى غير محببة، عندما أوصاه أحد أصـدقاء السـوء بشـرب كأسـه كله مرة واحدة، بعدما فعل أزعجه أول ما أزعجه رائحته، حسب أنها ستكون أفضل، لكنها أحالته الى رائحة الكحول المسـتخدم في المسـتشـفيات، بعدها شـــعر بإنفجار يحدث في أمعاءه، فتلوت في ألم رهيب، حاول كتمانه ولكنه لم يســتطع، جرى الى الحمام ليفرغ معدته من عشاءه الأخير.

بعدها حل سلام عميق، صحيح أن معدل ضربات قلبه أعلى كثيرًا من المعتاد، لكنه لم يعد يشعر بشيء، ولا أن يفكر في شيء، يرى ما أمامه فقط بشكل جيد وما أن ينزاح حتى ينساه، يحدث هذا مع الأشخاص والأفكار، يتكلم أصدقائه، ينظر في وجه أحدهم ويضحك بلا سبب واضح، يضحكون هم من ضحكه، فيجعله هذا يضحك بشكل أكبر وأكثر صخبًا.

إنما الليلة هو بلا أصدقاء، لن يضحك ولن يصخب، هو فقط يبحث عن هدوء يسمح له بإعادة حساباته، بعد الكأس الثاني إمتلئ داخل نفسه بالكآبة، وفكر قليلاً ثم استقر في قرارة نفسه واستقر على أن : ليكن لنفسه فقط ولتكن هالة مرحلة، محطة تم تخطيها وصارت ماضي، الآن ليصب تركيزه كله على عمله فقط ولن يمنح قلبه لأنثى مرة أخرى أبدًا.

وجد اسمها يبرق على شاشة هاتفه، انتفض قلبه المكسور، نظر حوله متحيرًا، كأنما ستضبطه هنا بعدما تعهد أمامها عن الإمتناع عن الذهاب لمثل تلك الأماكن، نظر إلى هاتفه وكان الاتصال قد انتهى، ولكنها عاودت الاتصال، جاهد نفسه حتى تجاهلها، ليكن شجاعًا بما يكفي أن يُنفذ قراره من الليلة، جُرح كرامته كبير وعميق، ويحتاج إلى الكثير والكثير من الإنتقام ليلتئم.

طلب المزيد من الخمر وقد ضـــرب البار مرارًا بكف يده، لم يعد مســـتجداً يؤثر فيه الخمر ســـريعًا، لمح بنتًا تجلس في الكرســـي الذي بجواره، رفع كأســـه كتحية.. ابتســـمت.. أشـــار للبارمان أن يضع أمامهما مشروبًا.. ابتسمت مرة ثانية.

نحيفة الى الحد الذي قدر معه أن أمه كانت لتستبعدها تمامًا من قائمتها للبنات الحســـناوات، ترتدي فســـتان ســـهرة أســـود، يظهر عدة وشـــوم مرســـومة بحرفية عالية على عدة مناطق من جسدها، تمثل جنيات وحوريات وأزهار سريالية التكوين، يصل لبســـها بالكاد الى ما فوق ركبتيها والتي تضـــع أحدهما فوق الأخرى فتبدو أنها لطفلة، يعزز ذلك الشـــعور وجهها البريء المتشبع بطفولةٍ بريئة، وجسدٍ متناسق القوام، ورغم ما لها من رموشٍ طويلة بشكل ملحوظ، وأعين ملونة وشعر ذهبي مجعد، فقد خمن **(نبيل)** أن كل هذا صـناعي، ولا شـيء منه أصـلي في تكوينها، ولكن لا يهم، ويظهر عبث الزمان بتلك الفتاة التي تبدو من أسرة متوسطة الحال ولكن ضيق ذات اليد هو ما اضطرها للنزول في مثل تلك الأماكن للبحث عن ثري، وهنا أخبر نفســـه من قال أنه يريد أن يبحث عن أي حقائق في هذا الليل؟

كان يعرف أنها لا تســمعه، ومع هذا أخذ يحكي لها بإنفعال شـــديد عن أبيه، وعن هالة، وعن أنه لم يكن يومًا راضـــيًا أو

سـعيـدًا، شـعر بحبالـه الصـوتيـة مجهـدة فتجرع بـاقي كأسه وسكت.

سـحبت هي المنديل الورقي من تحت كأسـها وأخرجت قلم الكحل وكتبت به شـيئاً ثم مررت إليه المنديل، نظر فوجده رقم هاتفها وتحته ما خمن أنه اسمًا للغرباء (ميرا)، رفع المنديل بين اصباعين من كفه إلى أعلى ورسم علامة الشكر، ثم وضعه في جيب قميصـه، تكلم ثانية فلم تجد صـعوبة أن تقرأ شـفتيه وهو يقول "لِنرقص".

ورقصـا معاً طويلاً، وظهر سـريعاً من حركاته أنه غير متقن لفنون الرقص أمام رقصـها السـريع المتقن، ترفع أذرعها في الهواء وتنزلها، تتقدم نحوه فتكون بين يديه ثم تتراجع، ترفع شعرها بيديها ثم تتركه، يراها رشيقة وسريعة حتى لتكاد أن تطير، مع الإستمرار في الرقص شـعر أنه يتخلص من كل مشـاعره، إنه ينثرها من جسـده كما ينثر حبات العرق حوله، عندما تخلص من كل حزنه شـعر بالإرهاق وإحتياجه للجلوس ثانية.

جذبها من ذراعها الرقيق إلى البار، شـربًا حتى لم يشـعر بكتلة جسده إلى الأرض بل هو في دوامات هوائية فوق أرضية يتماوج بينها فيهوي ويرتفع بمساعدة أيدي لا يرى أصحابها.

مستنداً على المقاعد والحوائط قام، ثم أكمل الى باب البار، وخرج، لمح فرد الأمن يتبعه، ليتأكد أنه يقصد حجرته ولا مكان آخر، توقف لثوان، نظر إليه، فكر أن يبدأ معركة معه، لكن فرد الأمن أخرج جهاز اتصاله اللاسلكي وتشاغل أنه يجري اتصالاً بزميله لسؤاله عن سير العمل، فأكمل هو إلى حجرته، وبشكل إعجازي وضع الكارت الممغنط في مكانه وفتح الباب.

ثم ارتمى على سريره بكامل ملابسه في غياب تام.

١١

في وقت متأخر من اليوم التالي قام يعاني من صـــداعٍ عنيف، نظر في هاتفه ليعرف الوقت وكان هاتفه قد أفرغ طاقته كاملة وصـــار مجرد واجهة زجاجية سـوداء لا تسـتجب، يجر أقدامه دخل الى الحمام، ألقى بما يرتدي على الأرض، وقف تحت الماء البارد طويلاً لعله يرجع إلى كامل وعيه.

خرج وقف يتأمل نفسه عاريًا أمام المرآة الطويلة بالحجرة، شـــعر بكرهه لجســـده الذي يشـــبه جســـد أبيه بدون روحه ولا جاذبيته، كأنه تقليد لأصل بعيد.

بحركة تلقائية فتح دولاب الملابس، لم يجد سوى شماعات فارغة إلا من بُرنس وحيد، لم يجلب معه أي ملابس، تذكر أن أسفل الفندق يوجد به محلات لبيع الملابس، وضع البُرنس على جســـده المبلل، ولبس الخف، وأخرج بعض نقوده من مكانها، ووضـــعها في جيبه، ومشـــى في الطرقات غير عابئ بنظرات البعض المندهشة، عند المصعد فكر في تغيير وجهته إلى أعلى، حيث حوض الســـباحة، ســـيمنحه الماء والأجســـاد العارية بعض الراحة.

وبالفعل صـعد.. خلع البُرنس على المقعد الشمسـي المريح، ونزل إلى الماء وقضى وقتاً حتى شعر بالجوع، فخرج وارتدى

البُرنس ونزل إلى الدور الأرضـي من المبنى حيث أحتل المول التجاري جزء كبير من المكان وأشترى ملابسه الجديدة وصعد إلى حجرته.

كان يخرج بعض ما تحتويه جيوب ملابســه المســتهلكة، تمهيدًا لوضـعها في الكيس الخاص بعامل المغسـلة، عندما وجد رقم **(ميرا)** المكتوب بقلم الكحل، وضـــع هاتفه على الشـــاحن وجلس على ســـريره يقلب قنوات التلفزيون إنتظاراً لأن يخزن بعض الطاقة.

عندما هب الهاتف من موته المؤقت، أزال وضــع الطيران الذي كان قد وضــعه عليه، ضــرب رقم **(ميرا)** لترد بصــوت ناعس جعله يشعر بتنميل بين فخذيه، ذكرها بنفسه وقال لها أنها مدعوة على تناول العشاء والسهرة معه، انتظرها إلى أن انتهت من ملابسـها وزينتها وعاودت الإتصـال به، تناولا الغداء وكان قد حجز مسـبقًا طاولة في مقدمة البار بدلاً من جلسـة البار التي بطولها تؤلم الظهر.

شـربا حتى إقتربا من الثمالة، وبدأ في إعادة ملئ الكؤوس، طلبت منه التمهل قليلاً فلا زال الليل في أوله، إلا أنه كان يريد أن يغيب عن وعيه ســـريعًا، تكلما بصـــوت عالي ومتقطع في موضـــوعات تصـــلح خططاً عشـــوائية للغد، ولأنه نســـى إعادة هاتفه لوضـــع الطيران فقد أضـــاءت شـــاشـــته ولمح اسـم **(مها)** يظهر ثم يختفى.

رفع الهاتف أمام وجهه فـــــ انفتح جراء بصـــمة وجهه المحفوظة، **قرأ الرسالة :**

- " نبيل أبوك قال محدش يقولك، لكني مقدرتش، أمك تعبانة جداً واتنقلت المستشفى"

قرأ الرســـالة فطار الخمر من رأســـه وهب واقفاً، أدارت ميرا يدها بعلامة الإســـتفهام، فرد عليها وهو يزيح كرســـيه للوراء للخروج:

- " أمر طارئ .. لازم أمشي هكلمك بعدين"

في حجرة الفندق أخرج علبة أمه من مكانها والباقي من نقوده، بعد محاولات عديدة لتذكر الرقم السري للخزينة، ونزل حيث تقف سيارته.

ألقى بما في يده في الصندوق الصغير أسفل مسند ذراعه الأيمن، ثم قاد الســـيارة من جراج الفندق إلى خارجه، وعبر الطرقات سريعًا، وكاد أن يصطدم بإحدى السيارات ولكنه نجح في تلافيها بأعجوبة، ليجد نفسه في شارع الهرم، بعدها كان في ميدان الرماية وتصير الأهرامات خلفه ويبدأ طريق الفيوم الذي لم يتصور أنه سيرجع إليها قريباً.

الخمر يثقل رأسه ويذهب وراء أفكار غير مترابطة، ينظر إلى عدادات السيارة فيجد أنه قد تخطى السرعة المقررة بعدة مراحل، يخفف ضغطه على دواسة الوقود.

ثم يعود إلى سرعته بشكل غير واعي، انتهى الطريق الصحراوي وبدأ يرى نخيل وزراعات خضراء بدت شديدة السواد ليلاً، وفجأةً رأي جسمًا يتحرك أمامه في الظلام، إنه رجل يعبر من جانب الطريق إلى آخر، رجل بملابس غريبة لا تناسب هذا المكان.

يرتدي بالطو طويل وحذاء طويل وعلى رأسه طاقية، نظر ناحية نبيل بلا خوف وانعكس الضوء على نظارته البصرية، حاول نبيل تفاديه، لكن الخمر تُقلل من قدرته الذهنية في اتخاذ القرار، وفجأةً صُعق .. وكأنما لطمته يد جبارة على كامل وجهه، وأعقبها ضغط هائل على ضلوعه.

ثم سار يسمع صوت احتكاك الصاج بالأسفلت، توقفت السيارة، فشم رائحة لطالما شمها وهو صغير، كان معلقًا ورأسه إلى أسفل وسط حقلاً من الذرة.

ولازال يمسك بمقود السيارة كأنه الأمل الأخير، صوت مكابح سيارات عدة، أضواء كثيرة وأصوات بشر تقترب.

كطبيب يعرف أن لا قدرة لعقلٍ بشـــري على تحمل هذا الألم، وســيعالج عقله الأمر أن يفصــل الناقلات العصــبية عن عقله كي يخفف من عذابه، ســـيدخل في غيبوبة حتمًا، توالت على عقله الصــور ســريعًا، صــورة وجه (**هالة**) المرتبك في خضـم المعركة الأخيرة، صـورة أبيه يمسـك بعصـاته كأنما يهم بضــربه، صــور أمه في هيأتها الأخيرة التي رآها فيها قبل أن تمنحـه علبـة مجوهراتهـا، تـذكر علبـة المجوهرات، حـاول مـد ذراعه ليلتقطها ولكن ألم رهيب في كتفه جعله يذهب في عتمةٍ لم يسمع أو يرى بعدها شيء وغاب عن الوعي.

١٢

نزل الدكتور **(مصطفى حناوي)** من سكن الأطباء بالدور الرابع، وذلك بعد أن ترك دكتور مصطفى حقيبته وبعض كتبه بالأعلى، وقد ارتدى بالطو أبيض، واستبدل حذاءه بآخر طبي مفتوح، وقد وضع سماعته الطبية الخاصة على كتفيه، بانتظار أن يجذب إحدى طرفيها في وقت الحاجة، كي لا يستخدم تلك الخاصة بقسم الجراحة التي يستعملها جميع الأطباء والتمريض تاركين عليها من شمع آذانهم، وقد اتخذ السلم الرخامي إلى أسفل، متجاهلاً المصعد الذي يتحكم به رجل ذو ذراع واحدة، ربما لأنه يمتلك سحنة تنم عن غضبٍ لا سبب له، ويصنع الكثير من المعارك مع من يريد الصعود من غير المرضى.

يمر بقامته الطويلة ووجه الجاد من بين جموع البشر المسرعين في الطرقات قاصداً قسم الجراحة، فاليوم هو دوره في المرور الصباحي، يكتب أوامر بإخراج من تحسنت صحتهم ليترك مكانه لآخرين بالانتظار، يجدد قائمة الأدوية لمن سيبقى أيام إضافية، يطلب أشعة وتحاليل لمن تطرأ عليهم تغيرات لا يفهمها.

وقسم الجراحة مقسمة لجزء خاص بالنساء ويسميه جميع العاملين (**الجراحة حريم**) ويليه في نفس الممر (**جراحة رجال**) وهنا في السرير الثاني جهة اليمين كان يرقد دكتور(**نبيل**) شاعرًا بإحباط ويأس لا حدود لهما، فبعد كل ما صنع للهروب من هنا، يجد نفسه على سرير هذه المستشفى الحزينة، واحداً من أسباب إختياره تخصص التخدير رغم وجود التخصصات الأخرى هو الإحتكاك مع عموم الناس، وأنه أشبه ما يكون بجندي الظلام، يأتي ويرحل ولا يتناقش سوى مع الجراح أو ربما الممرضة إن راقت له.

غير أنه كان في غيبوبة حين تم إحضاره إلى هنا كذلك تقضي القوانين إحضار جميع الحوادث إلى هنا وليس إلى أي مكان آخر، سنوات من العمل بعيداً أنساه هذه القواعد المملة.

كان في قمة ضيقه عندما جاء دوره في الكشف من دكتور (**مصطفى**) الذي وجده **يخاطبه قائلا :**

- "أخبارنا ايه النهاردة يا دكتور ؟ "

كان رده هو رغبته بالانتقال إلى مشفى خاص، كذلك استرجاع هاتفه من خزينة (الأمانات).

رد دكتور مصـــطفى وهو يكتب في الملف الخاص به بعدما ناولته له الممرضة المصاحبة له في **صمت** :

- الأمانات مهمة إدارية، بالنسـبة للنقل فبعد ما نطمن إنك تقدر تتحرك، شوية تحاليل وأشاعات وتخرج بالسلامة إن شاء الله.

تحول الدكتور مصطفى إلى غيره من المرضى، وكأنما ساء **(نبيل)** أن يتم معـاملتـه على هذا النحو، كـان منتظرًا لعلامـة أو كلمة ما تدل على التميز في المعاملة، على الأقل ألا يكون وسط هذا الجمع من المرضى متواضعي الحال وأهلهم الذين لا يكفون لحظة على الثرثرة، ناقلين إلى هنا كل مشاكل حياتهم في البيت والعمل، **فقال بلا تفكير:**

- لو سمحت يا دكتور مشيني من هنا.

عاد دكتور مصـــطفى خطوة للوراء والتفت، **وســـأله وهو ينظر في عينيه:**

- تعرف يا دكتور إنت خبطت إيه بعربيتك ليلة امبارح.

هز نبيل رأســـه نافيا، ويبدي علامة الجهل أو الاهتمام، **فرد دكتور مصطفى على ذاته وقال :**

- "إنسان".

سكت برهةً مهدئاً نفسه كي لا يبدو منفعلاً :

- " شخص ما مجهول الهوية، وزي ما حضرتك عارف، بيقعد في التلاجة شـــهر ولا اتنين وبعدها يروح للطلبة للدراســة والتشـريح، وبعدها ينزل في الحمض وياخدوا منه العظم اللي بيتم توريثه بين طلبة الطب لســـنوات، مش شـايف إن ده حدث يخليك تتحمل شـوية لحين إنهاء إجراءات بلاغ الشرطة ؟

كانت الممرضـة تنقل نظرها بينهما في قلقٍ عما ستسفر عنه المحـادثـة، نظر إليهـا دكتور مصـــطفى فـارتـدت للوراء في خوفٍ **فقال**:

- "لو سمحتي يا مس رتبي نقل الدكتور لقسم الدرجات".

هزت البنت رأسـها في صـمت، فأكمل طريقه إلى المريض التالي مكملاً مروره الصباحي.

كانت لفظة الدرجات هذه غريبة على أُذنه، ربما يعادل في بعض المســتشــفيات التي عمل بها قســم ال(VIP)، لذا انتظر إنتهـاء الممرضـــــة من مصـــــاحبـة الـدكتور مصـــطفى في مروره ليسألها.

وأكدت له أن ما يظنه صـــحيحًا، حجرة خاصـــة لك دون شـــريك، كما يمكن لأي مرافق المكوث معك، مقابل دفع مبلغ مالي في خزينة المســـتشـــفى، للمرة الأولى تقريبا يتذكر نقوده وعلبة أمه، سألها وقالت أنها ستكلم الشخص الإداري المسؤول عن خزينة الأمانات الخاصـــة بمرضـــى الحوادث، بالفعل جاء الرجل، ملابســـه متهدلة بلا أي أهتمام منه بمظهره العام، تثنت ملابســـه في مواضـــع عدة خصـــوصـــاً الظهر جراء الجلوس الطويل، **قال** وهو يبتســـم ابتســـامة رأها **(نبيل)** ســـمجة وبلا مناسبة:

- أؤمرني يا فندم ؟

أوضـــح له **(نبيل)** أنه يريد نقوده وعلبة الذهب وهاتفه، فتح الرجل فمه بدهشة مهولة **وقال** :

- فلوس ودهب، إيه يا باشـا الكلام ده؟ وجاء دور نبيل في الصدمة والدهشة .

فأكمل الرجل:

- معنديش غير محفظتك وموبايل جايب شاشة كمان.

حاول نبيل القيام وهو يقول:

- يا حرمية يا ولاد...

لكن ألمًا مبرحًا ناتجًا كما هو واضح في الأشعة عن كسر في ضلوع قفصه الصدري من الأمام، جعلها كخناجر داخلية تنغرس في رئتته مع كل نفس أو حركة، لذا كانت حركته المفاجأة وما نتج عنها من ألم كفيل بإدخاله في غيبوبة أخرى.

١٣

لأنه على يبدو في نظر الكثيرين هو الممثل للعمدة في حالة غيابه؛ لذلك كان طبيعياً أن يقع بلاغ الشـرطة الخاص بإصـابة نبيل ووجوده بـالمسـتشـفى العام بـالمحـافظـة والـذي حملـه **(عم جمعة)** سـاعي البريد على دراجته البخارية من المركز إلى العمدية.

بلا أي شـعور بضـرورة الإسـتعجال، قرأه **(علي)** وشـعر بالصـدمة، هناك السيدة التي نقلت إلى المستشفى بالأمس، الآن إبنها، كيف سـيكون وقع ذلك على العمدة، وضـع الخطاب في جيبه وأنهى ما أمره العمدة بقضـائه سـريعاً وأخذ السـيارة المرسيدس القديمة وانطلق إلى حيث الحاجة حورية تقضي وقتاً عصيبًا في عناية إحدى المستشفيات الخاصة.

وعندما وصـل علي كان العمدة مع بعض ضـيوفه الذين أتوا للمواساة يتناولون القهوة الذي وضعها صاحب نصبة شاي على جانب من المستشفى بشكل مرتجل، كعادته مال على أذنه بعدما سـلم على الرجال الآخرين، وهمس له عن ضـرورة أمر هام يحتاج وجوده منفردًا.

استأذن العمدة من ضيوفه وتنحى بإبن أخيه إلى جانبٍ غير مزدحم بالزوار، حاول علي نقل الخبر إليه بأقل الصيغ قسوة، ومع هذا فقد صُدم الرجل كما لم يراه علي من قبل، فجع كما لم يفجع في خسارة مالية أو موت قريبٍ أو تلف زرع، كان سيبدو لعلي هذا طبيعيًا؛ فلا شيء قبل الإبن في التربع في القلب، ولكن ما حدث بينهما عبر سنوات مضت وختمتها كان خروج **(نبيل)** عن السيطرة التامة بالزواج من قاهرية اعتبره قد قطع حبائل العاطفة تمامًا من قلب الرجل، كان واهمًا بكل تأكيد وهو يرى الرجل يترك زوجته الأولى ورجاله وزواره **ويقول** :

- يلا بينا بسرعة على هناك.

تحرك **(علي)** في صمتٍ تام ولم يتكلم فقط يسمع الرجل يتمتم **"استر يا رب"**.

عندما انتهى علي من إيقاف السيارة وقبل أن يهم العمدة بالنزول قال جملة واحدة :

- متتكلمش على تعب الحجة.

للعمدة طرقه الغريبة في تخطي كل العراقيل، مع أن وقت الزيارة قد انقضى، ويمر في طرقات المستشفى شباب يرتدون الزي الخاص بالأمن، سعداء بما يمتلكونه من سلطة، تخولهم

لطرد المتباطئ من الزوار والباعة السارحين، لكنه وبمجرد ما يمد يده على أحدهم بالسلام حتى يتنحى جانباً في إنحناء لطيف وهو يشير بيده للأمام **قائلاً**:

- اتفضل يا حاج.

يعرف (علي) يقيناً أن عمه يضع لهم النقود في جيوبهم بشكل لا يسبب لهم إحراجًا، كما أنه لا يُعلق على ذلك ولا يُنكره؛ معتبرًا إياه من ضروريات الحياة، فلكل رجل في نظره ثمنًا، ربما يعلو أو يقل لكن في النهاية كل رجل قابل للشراء، ومن لم يغره المال أغراه باقي ملذات الحياة.

اخترق كالسهم ممرات المستشفى التي بدأت في الهواء أخيرًا، ولجلبابه صوت محبب إلى أذن علي ويشعره بالأمان، للحظة الأخيرة يتصور علي كمحاولة من عقله لتخفيف الصدمة وربما عمه العمدة أن يتصور أن الحادث بسيط، مجرد خدوش أو كدمات في أسوء الأحوال.

لذا وعندما سأل في نقطة التمريض وأشارت له أحدهما على سريره، هال علي المشهد ولم يتمالك نفسه من الجري نحوه واحتضان رأسه وضمها إليه، ثم هذا البكاء الذي لم يتوقعه هو نفسه.

اســـتيقظ نبيل على احتضـــان إبن عمه علي له، وبكاءه بصـــوت مرتفع لفت نظر المحيطين، ففتح عينيه ليجد أن أباه يتأخر لحين انتهاء **(علي)**، وفي أثناء ذلك رفع عصـــاته ذات رأس الأسد عاليًا وقال للمرضي الآخرين كأنما يُشتت أنظارهم عن **المشهد المحزن:**

- ألف سلامة عليكم جميعاً.

تمالك علي نفســـه أخيراً وقام واقفًا، فاقترب العمدة من ســـرير إبنـــه وقـــال بهـــدوء أدهش علي من هـــذا الرجـــل الممتلئ بالمفاجئات:

- ألف سلامة عليك يا دكتور.

سكت لبرهة يعالج دمعة حاولت الفرار من عينيه:

- "متقلقش كله هيبقى تمام"

وحان موعد **(نبيل)** في البكاء .

- "طمنوني على أمي يا جماعة "

فبكى لشعور خفي لم يستطيع هو نفسه فهمه، ربما إعتذارًا أو اســـتغاثة أو حتى حزناً على أمه، بينما نظر الرجلين إلى

بعضهما في دهشة، تحولت عند العمدة للحظة إستياء وهو يفكر فيمن يا ترى فعلها وأخبره ؟

بينما خرج العمدة للشـرفة يجرى اتصـالاته، طمأنه **(علي)** بجملٍ كثيرة متشابهة في النهاية على أمه، **ثم عاد وكرر :**

- "متقلقش كله هيبقى تمام".

وفي وقتٍ قصيرٍ جداً تم نقل **(نبيل)** لقسم الدراجات، قياسًا على كل إجراء يتم في هذا المبنى المتسـع الذي تحدث فيه كل الأشـياء ببطء بالغ حتى الموت نفسـه، ومعرفة مسـار قضـية القيادة تحت تأثير الكحول، وجلس الثلاثة على كراسـي مريحة تجـاور سـرير المريض كمـا هو الحـال في جميع الحجرات الخاصة بقسم الدرجات.

في نهاية الأمر ترك العمدة علي بجوار **(نبيل)**، بينما هو يمنح لنفسـه مرونة أكثر في التحرك ومتابعة الأمور، فأمامه زوجته يريد أن يُطمئن البنات عليها، ومحامي يجب أن يَشـرع في إتخاذ التدابير وذلك لتقليل الضرر للحد الأدنى.

كما اتفقا أن يقول **(علي)** لأي متصل به وخصوصاً زوجته أي حجة بخلاف أن أخيهم في حادث، تشـتت كبير وارتباك سيحدث، يكفيهم إلى الآن الحزن على أمهم.

يهز علي رأسه وهو يكرر وراء كل توصية :

- "حاضر يا عمدة".

غادر العمدة المستشفى، وجلس **(علي)** بجوار السرير حزينًا، وعاد **(نبيل)** إلى شعوره بالحزن الذي شغله عنه وجود أبيه ولو بشكل مؤقت، وعاد يسأل عن أمه وما جرى لها.

١٤

(التَّخليط الـذهنِي) مرض يصـــيـب أُولَئِـكَ الـذين يمكثون في المســـتشـــفى فترات زمنية طويلة بلا حراك، ولا يتعرضـــون لضـوء النهار، وهو ما يصـنعه قسـم الدرجات في رواده الذين يمكثون طويلاً كنبيل، فقد قصـد القائمون عليه أن يكون مسـتقلاً وهادئاً، له نوافذ ذات ســـتائر، وأبواب لا تنفذ الصـــوت، حتى الممرضـة تأتي بالأدوية في هدوء وود متوقعة أن من يقطن هذا الجناح من المستشفى لابد وأن يكون من الأشخاص ذوي النفوذ والذين يجب مراعاة غضبهم.

يحدث للمريض الذي يقيم طويلاً أن يفقد الأحساس بالزمان وتتـابع الأيـام، لا يعرف على ســـبيل اليقين أهو في النهـار أو الليل، يميل الى قلـة الكلام والطعـام، يزيـد الأمر تعقيدًا عنـدما ينطوي برنامج المريض على أخذ أدوية لمعالجة الألم أو القلق، وهو ما يحدث مع نبيل تمامًا.

نتيجة لكل ذلك صار نبيل معظم وقته ما بين النوم واليقظة، يرفض التعامل مع علي، ينفعل بلا سـببٍ، تتابع في عقله بشـكل فوضـوي صـور لا روابط بينها، خالطًا بين ماضـيه وحاضـره، مثل جلسـة أمه وقت رحيله، أبيه وقت غضـبه، نقوده في خزينة الفنـدق، **(هـالـة)** وهي تتـأمـل **(شـــكمجيـة)** الـذهـب، شـــجرة

(الكزورينا) التي تحك غصـــونها ســطح ســيارته عندما يدخل القرية، عمود يعلوه تاج من الجير على شـــكل زهرة لوتس لا يعرف لأي حقبـة ينتمي ملقى بـإهمـال في حوش البيـت الكبير كثيرًا ما عرقله صغيرًا.

هل يحكي ل**(علي)** أم يظـل صـــامتـا، تخرج رغمـاً عنـه كلمات غير مترابطة عن عمله بالقاهرة، والقرية، عن كل ما حاول الهرب منه طويلاً.

يطفو وعيه كاملاً فيفكر في متى يسـتطيع المشــي والعودة، وإذا قام ما مصــير القضــية التي لوح بها الشــرطي والطبيب، رجل بلا هوية، ربما الأفضل له أن مات بدلاً من العيش مكسر العظام في ألمٍ كما هو الآن.

حســـب من في القاهرة أنه في الفيوم وحســـب إخوته أنه مازال في قاهرته لا يريد المجيء وبذلك لم يعد ينتمي لأحد ولا يبحث عنه أحد، ترسـل له **(مها)** رسـائل وبالطبع لا تصـل وقد أكد أبيه على **(علي)** بعدم الفصـــح عما حدث حتى لا تصـــير المصيبة في البيت مصيبتين.

يـأت أبيـه لـدقـائق، يمنح علي المزيد من النقود ثم يرحـل، يتذكره كحلمٍ يراوده لم يعد يدري هل يتمنـى تحقيق حلمه أم لا.

علي يغيب أحيانًا ليرى زوجته وأبناءه، أو يحضر ملابس جديدة أو طعام، كلاهما لا يحب طعام المستشفى، يمنحانه عن طيب خاطر للعاملات اللاتي أحببن الخدمة في هذه الحجرة وحرصن على نظافتها.

مر طبيب الجراحة والذي كتب من ضمن وصياه **(عرض نفسية)** تلقى **(علي)** الخبر من الممرضة فزعًا، ولكنها طمأنته أنه إجراء بسيط للحيلولة والدخول في مراحل متقدمة من الإكتئاب النفسي.

وحضر الطبيب النفسي وكتب على أدوية أضافية، تعيد له انضباطه النفسي، ورجع يسأل عن أمه وما حدث لها، يحاول القيام في غضب فيقعده ألمه الحاد، طلب من **(علي)** إحضار أدوية مخدرة وعندما رفض إبن عمه متحججاً أنه لا سبيل لديه لذلك صرخ في غضب وطلب منه الرحيل فخرج علي ليجلس على الكنبة الخارجية لبعض الوقت ثم عاد.

أيام كثيرة مضت قبل أن يتمكن من الحركة ويستطيع فتح النافذة والنظر خلالها لضوء النهار، فضبطت ساعته البيولوجية وعاد إليه وعيه، طلب بإصلاح هاتفه فتم له ذلك، ولكن كان بلا أسماء، طلب رقم أخته الصغرى من **(علي)** واتصل فبكت من لهفتها عليه، حاول التماسك وهو يسأل عن أمه، قالت له عن

ضرورة حضوره ليراها، فهي في تعبها الشديد تسأل عنه كلما استطاعت الكلام، مزق كلامها قلبه دون أن تقصد هي ذلك.

اســـتعجل أطباءه في كتابة الســـماح له بالخروج، وعندما كتبوه فعلاً، تفاجئ بالشـــرطي ذاته يقف ببابه لإقتياده مكبلاً بالأصفاد إلى مركز الشرطة التابع له.

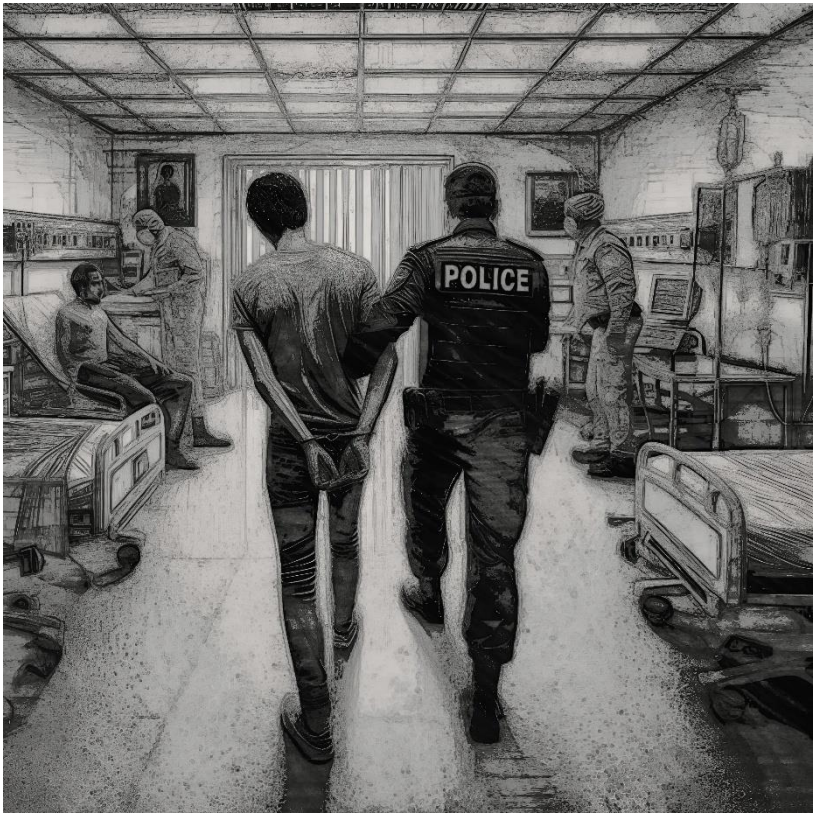

١٥

عندما وقع الأطباء على خروج **(نبيل)** من المستشفى قبيل الظهر، أبلغ **(علي)** عمه كأول شيء يفعله، ثم لملم أشيائهما في حقائب سفر قد أحضرها قبلاً، ساعد نبيل الذي ما زال يعاني بعض الألم على تغيير ملابسه، كان الكلام بينهما قليلاً وبطيئًا.

وما إن هما بالتحرك حتى وجدا أمين الشرطة في انتظارهما، لاح طيف إبتسامة ساخرة على وجهه **وهو يقول بشكل متصنع وبلا عاطفة :**

- "حمد لله على السلامة يا دكتور"

ثم أخبرهما أن عليه تسليم نبيل لقسم الشرطة القريب وبذلك ينهي دوره.

على الأسفلت الذي لم يقف عليه نبيل منذ أمد بدا له بعيدًا جدًا كان سيارة أبيه تقترب ببطء، نزل منها واحتضنه بلا كلمات، أحس نبيل في حضنه بأمانٍ دام لثوان قليلة، فقد تركه ثم نظر للشرطي وقال أنه سيوصله بنفسه لقسم الشرطة ولكن الأمين إعتذر وقال أنه بالفعل استدعى سيارة القسم.

وفي إنتظار سيارة الشرطة سأل **(نبيل)** عن أمه فاكتفى أبيه **بكلمة**:

- "بخير"

جاءت السيارة تطلق صيحتها المنذرة ربما ليوسع لها باقي السائقين الطريق، ركب **(نبيل)** ومشى أبوه وراءه، وفي قسم الشرطة تم تسليم ملف قضيته إلى الضابط النوبتجي.

أخبر الضابط أبوه بعدما قدم له نفسه بأن عليه أن يقضي الليل هنا ثم يتم ترحيله في الصباح إلى القسم التابع لمنطقة الحادث، لكن مع اتصالات أبيه امتثل الضابط النوبتجي بنقل نبيل في اليوم ذاته لكسب بعض الوقت، وفي انتظار انتهاء الاجراءات القانونية ذهب **(علي)** وأحضر لنبيل الماء والعصير وبعض علب البسكويت، تلقاها نبيل بلا شكر.

وعندما وصل الجميع إلى القسم القريب من مكان الحادث كان محامي أبوه ينتظر، يتعجب من هذا الرجل الذي يرتب كل أموره بدقة ويستبق الأحداث دائمًا، وفي قسم الشرطة طلب المحامي أن يجلس مع نبيل على إنفراد فسمح له الضابط المسئول بذلك.

سأله المحامي عما جرى ليحضر دفاعه، وعندما حكى له نبيل ما حدث بما في ذلك ولأول مرة جاء على ذكر علبة

مجوهرات أمه الثمينة، صمت المحامي قليلًا ثم أمره بالإنصات جيدًا، وطلب منه أن يحكي لوكيل النيابة ما سنقوله بالضبط بلا تحريف، وبدا المحامي في سرد الحكاية من وجهة نظر جديدة تمامًا.

وعندما جاء موعد العرض المسائي على النيابة تم نقل **(نبيل)** مقيدًا مع متهمٍ آخر إلى مقر النيابة الملحق بالمحكمة، حيث ركب مع متهمين آخرين سيارة الشرطة الكبيرة الزرقاء، وشعر بسخونة الصاج أسفله ومن فوقه ووراء ظهره تزيد كلما مشت السيارة أكثر، واستقر أخيرًا جالساً مع زميله أمام حجرة التحقيق، وعندما خرج حاجب وكيل النيابة ونادي اسمه أزال عنه الحارس الأصفاد، ثم وقف الحارس أمامه وضربه برفق مرتين بظهر إصبعه الأوسط ثم دفع الباب بدون انتظار إذنًا بالدخول، دفع نبيل أمامه ثم دخل محاميه وأغلق الباب خلفه بهدوء.

داخل المكتب ضربهما تيار مكيف الهواء القوي، فأغلق نبيل عينيه لا إراديًا، وعندما فتحهما رأى مكتب كبير بلون القهوة ذو إضاءة خافتة، فوقه مصباح مكتبي منكفئ على نفسه تنير مساحة دائرية محددة، سمح له ضوءها أن يرى بالكاد الشاب الذي يبدو وراء مكتبه مهندمًا ووسيمًا، على يساره ملفات

بعضـها فوق بعض في ارتفاع غير بسـيط، وعلى يمينه الكاتب منتظراً بادأه بالكلام ليبدأ كاتب العدل بالتسـجيل، ولكن الشـاب الذي بدا غارقاً في أوراقه لدرجة أنه لم يرفع عينيه للقادمين في لحظة دخولهما، وبعد برهة قصيرة رفع وجهه عن مكتبه ونظر للمحامي **وقال** :

- **"أقعد يا أستاذ"**

وظل نبيل واقفاً كما هو، الذي كان مشـبكًا ذراعيه بغضـبٍ مكتوم فنظر له وكيل النيابة **وقال** :

- **"نزل دراعك يا أستاذ واحترم النيابة".**

نظر المحـامي إلى **(نبيل)** وبلا إبداء لأي تعـاطف ولكنـه وفي محـاولـة منـه لإزاحـة هذا التوتر فـأخرج كـارت تعريفـه وقدمه لوكيل النيابة الذي رفعه أمام عينيه وتأمله قليلًا ثم أمر من كاتبه إثبات حضوره مع المتهم، ثم نظر إلى **(نبيل) وسأله:**

- إيه اللي حصل؟

رد نبيل كما أفهمه محاميه :

أنـا كنـت راجع من القـاهرة قلقـان على أمي وفي مكـان الحادث اتفاجئت بواحد بيقطع عليا الطريق فجأة، حاولت تفاديه لكن بعدها معرفش اللي حصـل، فتحت عينيا في المسـتشـفى،

بعدها جه الأمين والظابط لعمل محضر، طلبت من الضابط أنه يجيب علبة الدهب اللي في العربية، لكن الضابط رفض، ولما علي صوتي وبدأت أزعق لفق لي تهمة القيادة تحت تأثير المخدر.

تنهد وكيل النيابة وقال :

- تمام .

ثم نظر إلى الكاتب وأعاد ما قاله نبيل بصيغة أقرب للغة الفصحى، وعندما انتهى ضغط زر جرس أمامه فدوى في الخارج، فتح الباب وأطل منه الحاجب، وقال أمرك يا فندم.

فطلب منه فنجان قهوة، **ونظر للمحامي وسأله :**

- تشرب حاجة يا أستاذ؟

وعندما أجاب المحامي بالرفض أشار للحاجب علامة بمعنى الذهاب فرحل وأغلق الباب خلفه.

عاد ببصره إلى نبيل وسأله :

- ما هو قولك فيما هو منسوب إليك بأنك كنت تقود السيارة برعونة وكنت تحت تأثير مادة مسكرة ؟

أجاب نبيل بسرعة وآلية :

- الكلام ده محصلش.

يتراجع وكيل النيابة للوراء في كرسيه ويشبك أصابعه أمام وجهه **ويسأل نبيل :**

ما قولك فيما هو منسوب إليك من قتل المجني عليه بسبب رعونتك في القيادة، وأنك كنت تحت تأثير المخدر؟ فكر نبيل في نفسه أن الرجل يعيد نفس الأسئلة بصيغ مختلفة، جعله ذلك يشعر بألم في قدميه، فكر في طلب الجلوس **ثم تراجع :**

- "رد يا أستاذ"

جاءه صوت وكيل النيابة مستحثاً إياه على الكلام، **فقال نبيل :**

- الكلام ده محصلش.

ما هي السرعة التي كنت عليها وقت وقوع الحادث؟ سأله الوكيل وعندما هم بالإجابة فتح الباب ودخل الحاجب يحمل القهوة، وضعها أمام وكيل النيابة وعندما كان يهم بالإنصراف أستطرد وكيل النيابة الحديث **وقال** :

- مجبتش ميه ليه معاك؟

يرد الحاجب متوتراً :

- "حاضر يا بيه"

ألم نبيل يسـري في جميع أنحاء جسـده، يشـعر بأن الوقت يمر ببطء شـــديد، ويوم الحســـاب هذا لا يريد أن ينتهي، فكر بالإعتراف كي ينتهي هذا الموقف المذل.

ينظر المحامي إلى **(نبيل) فيقول نبيل** :

- حوالي ستين كيلو.

يرتشف وكيل النيابة رشفة من فنجانه ويسأل :

- كانت الساعة كام وقت وقوع الحادث؟

نبيل بالطبع لا يتذكر ولم يحدثه المحامي في هذه الجزئية ولكنه اعتمد على حدسه وهو **يقول** :

- في حدود الساعة الثالثة صباحاً تقريباً.

عاد الوكيل ليسأله :

- هل كان بالطريق أعمدة إنارة؟

وإذا كانت متواجدة هل كانت مضاءة؟ مزيدًا من الأسئلة التي لم تخطر ببال نبيل فيرد **وهو يحاول التذكر:**

- مش فاكر

المحامي يراقب التحقيق صـــامتاً، ينتظر دوره، أما وكيل النيابة الذي أنهى فنجان قهوته واستعد كمن سينقض إنقضاضته

الكبرى، نظر إلى **(نبيل)** وســـأله وهو يرفع ورقه أمام عينيه **ليقرأ منها :**

- ما قولك فيما تبين من معاينة الشرطة، وأحد المهندسين المخصـــصـــين بإدارة المرور أقر بأن حالة الضـــوء والرؤيـة أثنـاء وقوع الحـادث كـانتـا جيـدة، ويتوقع أن يكون قائد السـيارة هو المتسـبب في الحادث، حيث تبين من خلال فحص أثر إطـارات الســـيـارة على الطريق الأسفلت، من بدأ الضـغط على الفرامل ومكان الإرتطام يتضـــح أن ســـرعة الســـيارة وقت وقوع الحادث كانت تقترب من مائة وعشرين كليو في الساعة، وهذا تجاوزًا للسرعة وسط الكتلة السكانية.

رد نبيل الذي بدأ في ألم وحيرة ويوشك على السقوط أرضًا :

- معرفش هم قالوا كدا ليه.

سأله وكيل النيابة هل لديك أقوالاً أخرى؟ أجاب نبيل بلا تفكير:

- لا .

أشار وكيل النيابة إلى المحامي وقال :

- اتفضل يا أستاذ.

قال المحامي وهو ينظر بإتجاه الكاتب :

- الحاضـــر مع المتهم طلب إخلاء ســبيله بأي ضــمانات تراها النيابـة، وذلـك لإنتفـاء مبرر الحبس الإحتيـاطي المنصــــوص عليه قانوناً حيث أن المتهم معلوم محل إقامته الثابت والمعلوم ولا يخشى عليه من الهرب وليس من أرباب السوابق .

وأمــام حجرة التحقيق جلس نبيـل أخيرًا منتظرًا تقرير النيابة، متمنيًا من كل قلبه إخلاء ســـبيله للذهاب لرؤية أمه المريضــــة وأخواته البنات، كان العالم يضـــج من حوله وهو غـارق في حزنـه وألمـه، ويحتـاج إلى ملء كفـه من المســـكن ليسـكت ذلك الألم الرهيب في كل أنحاء جسـده، ولكن وللأسـف الشديد خرج إليهم الشرطي المصاحب له **وقال :**

- أربعة أيام على ذمة التحقيق.

١٦

بعد الإنتهاء من التحقيق مع باقي المتهمين يرجع نبيل إلى أصـــفاده مع متهم آخر، تفوح منه رائحة البول، ويتمالك نفســـه كي لا تفر دموعه من بين جفنيه، وعندما يهم الجميع بالتحرك للعودة من النيابة الى قسم الشرطة يضرب أحد المتهمين رأسه بالحائط، وتنفجر الدماء في جبهته، ينســى نبيل أموره الخاصــة وهو يرى هذا المشـــهد العجيب حيث الرجل يصـــرخ أنه يريد العودة إلى مكتب التحقيق.

بالفعل يتعطل الموكب ويقومون بفصـــل هذا الرجل عنهم ودماءه تغرق كل بقعة يذهب إليها، ولأن الرجل ادعى أن دماءه وجرحه نتيجة ضـــرب الضـــابط له فقد أمر وكيل النيابة بعض المتهمين للشـــهادة ومنهم نبيل الذي أنكر مع الباقين أن يكون الضابط الفاعل وأن الرجل فعلها بنفسه.

وفي العودة حيث أســـتقل الجميع ذات الســـيارة الكبيرة الزرقاء والتي لها نوافذ صـــغيرة عليها قواطع حديدية، كانت معاملة الضابط أفضل مع الجميع وصوته أقل علوًا، خصوصاً مع نبيل الذي عرف أنه طبيب فطلب منه الركوب في الأمام بجواره وأخذ يناقشـه في بعض التعب الذي ينتابه كثيراً مؤخرًا،

كان لا طاقة لنبيل على الكلام والشـــرح فأرجع جميع تعبه إلى ضـــغط العمل وضـــرورة النوم الكافي والراحة، لكن الضـــابط أجاب فيما يعني أنه لا ســـبيل إليه إلى الراحة إلا في الجنة فهي دار القرار فلم يعقب نبيل بشيء.

وعند الوصول للقسم يضطر علي والعمدة الذي ظهر عليه جليًا أثار أرق اليوم للمغادرة بوعد أن يأتوه في الصباح، ودعهم متأثرًا **ولكن أباه قال له وهو يشد على يده :**

- " شد حيلك".

كان صـــوت باب حجرة الحجز الحديدي وهو يفتح وكأنه ينفذ حكماً بالإعدام شـــنقاً على قلب نبيل، بعدما دفعه الأمين إلى الداخل ظل لعدة ثواني واقفًا بلا رؤية، **ثم آتاه صوت أجش :**

- "اتفضل البيت بيتك"

ثم بعض الضـــحكات الســـاخرة، وعندما حاول أن يجلس لم يجد له موطئ قدم، فالحجرة شديدة الزحام.

ثم هب من بين الجالسين رجلاً خمن أنه صـاحب الصـوت الأجش **وقال** :

- "الوقت هنا مش بنحسبه، هات الساعة دي بدل ما تقعد تبص فيها وتزعل نفسك"

نفس الضحكات القصيرة الساخرة، سمح نبيل له بسحب ساعته القيمة بدون مقاومة، هذا إذا ما كان يسمع عنه، النبطشي وهو الحاكم الغير رسمي بغرفة الحجز، لم يتركه الرجل لأفكاره طويلاً فقد أشار إلى ركن في جوار الحائط وقال :

- "ده مكانك"

جلس نبيل القرفصاء واستقر في مكانه، تعب اليوم كله تركز وصار يضرب جسده بلا هوادة، يزيده سماع صوت الرجل الذي ضرب رأسه بالحائط يصرخ من ألم الضرب في حجرة قريبه، الجميع يسمعه بلا ذرة تعاطف أو إهتمام.

فتح الباب وتطلع الجميع، ودخل رجل ضخم وتقدم الصفوف كمن يعرف المكان جيدًا، جلسا على ركبتيه كمن يختم صلاته، ثم نظر لليسار بلا هدف معين، وحينها قام صاحب الصوت الأجش ومد له يده، وأخذه في جواره، فيما بدا لنبيل أنها علامات على الصداقة في ذات الكار، وعنما جلس الرجل وبدأ في سرد حكاياته ومعاركه مع ضباط الشرطة ونال استحسانًا كبيرًا من المحيطين بدا فجأة كمن سيتقيء مما أكله

مؤخرًا، ولكنه في النهاية تلقى في يديه كيساً بلاستيكياً صغيرًا مملوء بحبات البرشام، وبدأ في توزيعها وجمع النقود بشكل هادئ وبلا أي صخب، لكم يريد قرصًا من هذا يطفئ ألمه، ولكنه سيعرض غدًا على مصلحة الطب الشرعي لإعادة فحص دمه حسب طلب محاميه، حاول النوم في هذا النطاق الضيق، وأغمض عينيه فعلاً، لكنه لم يذهب إلى درجات النوم العميقة، عقله يكرر في صور لا رابط بينها ولا معنى، كان بين النوم واليقظة حينما مد يده بالنقود لصاحب البرشام، وأخذ القرص الذي سيغير كثيرًا في مجرى حياته فيما بعد، لكنه الآن يريد فقط أن يسكت الألم وينام.

وبالفعل نام حتى أن أمين الشرطة وجد صعوبة في إيقاظه للذهاب لمصلحة الطب الشرعي لأخذ عينةٍ أخرى، وهناك جلس نصف واعي في انتظار حضور الطبيب، وعندما تم الأمر عاد إلى محبسه المؤقت، كان علي قد حضر ومعه طعاماً لكنه لم ينتبه لنداءاته فترك الطعام مع الأمين.

عاد إلى مكانه بجوار الحائط، جسدٌ بلا وعي، دفع مرة أخرى وتلقى قرصه الذي يذهبه في غيابٍ طويل، وبهذا قضى أيامُه الأربع حتى حان موعد العرض على المحكمة.

١٧

د. نبيل بقاعة المحكمة ويظهر من داخل المحبس والقاعة ممتلئة

ويظهر والده وأقاربه والمحامي.

مقيدًا مع شـــخص آخر خرج من قســم الشــرطة، إنها ذات السيارة ضيقة النوافذ قليلة الهواء، صفيحها ينفث السخونة، جلس يتمـايل مع كل توقفٍ أو إنطلاق، وفي المحكمـة دخلوا من بـابٍ صـغير ومشـوا في ممر شـبه معتم، حتى استقر في حجرة شـديدة الصغر وشديدة الزحام سمع الشرطي يسميه : (**الحبسخانة**).

لا نوافذ لها سـوى شـفاط كهربي في أعلى الحائط، كأنه ما زال في الســيارة الزرقاء، لهـا رائحـة تزيد عن رائحـة مبنى معالجة مياه الصـرف الذي تبرع به أبوه، أبوه.. لقد تذكره الآن، ربما هو الآن يشعر بالإنتصار لأفكاره.

وينظر له بإعتباره قد فشـل في كل ما سـعى إليه، ماذا عن أمه الآن، هل هي بخير كما يخبرونه كلما سأل عنها، تفكيره في أمه يســوقه إلى التفكير في صــندوقها الذي ضــاع، بالأحرى سُرق، سرقه شخص ما جبان مستغلاً غيبوبته، ولكن من يكون هو يا تُرى؟ هل سـائق على الطريق تصـنع المسـاعدة وهو في الحقيقة قد جاء من أجل إيجاد أي شـيء قابل للسـرقة، فقابله هذا الكنز الذي لم يتخيله يومًا؟ ربما هم رجال الإسـعاف، الشـرطة، أحس عندما وصــل لهذه النقطة من التفكير أنه يكره العالم كله، كل المحيطين به، يريد لو يستطيع ان يفجر نفسـه في وسـط كل هؤلاء الذين يشــعر بعرقهم يخنقه فيقتل نفســه ويقتلهم فلا يترك

أحد، ربما يتسع الموت بحجم غضبه فينفجر هذا المبني الحزين كله، بل هذه المحافظة الكئيبة، والتي أراد الهروب منها فعاد إليها مقيدًا بأغلال غليظة.

حتى حان وقته فتم سحبه من وسط هؤلاء الذين لا يكفون عن الثرثرة، البعض عن ماضيهم الإجرامي والبعض الذي يدعي البراءة ويقسمون مرارًا أنهم ظُلموا.

في مُروره بقاعة المحكمة الكبرى والتي منها تتفرع طرقات وتصعد سلالم، رأى أقرباء له، أعمامه وأخواله، وعلى رأسهم إبن عمه **(علي)**، يحاولون الإقتراب منه، ولكن العساكر من حوله يدفعونهم بعنف، شعر بالعار يلفه، يسألونه بصوت عال محاولين التغطية على هذا الطنين الضخم الذي يبتلع كل محاولة للتواصل، سائلين عن أحواله، فيرد هو بالسؤال عن أمه.

ثم استسلم لليد التي تجذبه ونظر إلى الأرض كي يقطع محاولات التواصل الفاشلة هذه، وأخيراً اتخذ مكانه في القفص الحديدي في جانب القاعة التي كغيرها تغرق في الطنين.

وهو صامت، رافضًا التواصل مع رفقاء القفص الذين حاولوا فتح نقاش ودي عن سبب الحبس، سرقات واعتداء

وضــرب واغتصــاب و قتل، تركهم يتناقشــون ومنهم من ظل واقفاً وآخرين جلســوا على الأرض، بعضــهم يدارون وجوههم خجلاً من الآخرين، بينمـا آخرين يتطلعون على أقربـائهم في انتظار أن تحين لحظة للتحية والسلام.

دخل القاضـي فعم الصـمت، بدأت الجلسـات وبعد حين جاء دوره، رأى محاميه يطلع مصدومًا على تقرير المخدرات، الذي ولابد أنه جاء إيجابياً يثبت تورطه، نظر ناحيته نظرة خاطفة كأنما يحاول أن يســأله عن هذا الذي يحدث ولا يفهمه، فهبطت عيون نبيل الى أسفل قاطعاً هذا التواصل البصري الذي كان بلا فـائـدة، ولكن لابـد للمحـامي أن يقوم بعملـه مهمـا كـانـت التهم الموجهة لموكله، لذا تدارك المحامي نفسـه سـريعًا وطلب إخلاء سـبيل موكله، وحاول التشـكيك في نتائج التحليل ومدى قانونية طلب النيابة إعادتها، وظل يســوق الأدلة القانونية التي تدعم موقف لنبيل الذي يعرف هو نفسه أنه مهترئ تمامًا.

بعد إنتهـاءه كـان يجـب على الجميع الانتظـار حتى نهـايـة الجلسـات، وتداول القضـاة وكتابتهم الأحكام، التي سيخبرهم بها الكاتب المسئول بعد ذلك عنها.

ظل نبيل غارقًا في ذاته، يصـــل أذنه رغماً عنه أصـــوات بكاء وصـــراخ وزغاريد، مشـــاعر فرح وحزن، أطفال تتعلق بآبائهم ويتم إبعادهم عُنوة، وعيون لأعداء تتلافى التلاقي.

وأخيرًا جاءهم سكرتير المحكمة بصيغة الحكم :

- استمرار الحبس خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيقات، على أن يراعى له التجديد في المواعيد القانونية.

فتم تقييده مرة أخرى ليرجع إلى محبسه.

جاء من ينادي اسـمه، مشـى وهو لا يقدر على الإسـراع، تركته اليد التي تسحبه في الكرسي المقابل للكرسي الذي يجلس فيه أبيه، في حجرة الضابط النوبتجي، قال الضابط :

- إزيك يا نبيل؟

هز **(نبيل)** رأسه بلا كلام، **فسأل الضابط مرة أخرى :**

- حد مزعلك جوا ؟

فقال (نبيل) وهو ينظر إلى وجه أبيه الحزين وليس إلى الضـابط كما ينبغي أن يحدث وأردف **قائلاً :**

- شكراً لحضرتك.

نظر الضابط لأبيه وقال وهو يهم بالقيام :

- طيب يا عمدة خد راحتك .

شكره أبو نبيل وهو يتحرك في كرسيه في توتر وإحراج.

بمجرد خروج الضـــابط فكر نبيل أن يجثوا ســـاجدًا تحت أقدام أبيه، معتذرًا عن كل ما بدر منه في سنواته السابقة، طالباً منه إستخدام كل معارفه وعلاقته ليخرجه من هنا، ولكن سريعاً وجد أن أفكاره ترتد للوراء تحت خاطرة أن أبوه الآن يشـــعر بالإنتصار لأفكاره ومبادئه وطريقته في الحياة وفي الحكم عليه.

ترجم جسده الذي يمتلك التحكم الكامل فيه هذا الصراع إلى دمعةٍ سوداء خرجت غصبًا عنه، مسحها سريعًا، وقد تحرك في كرســـيه بعصـــبية، أبوه الذي تحولت ملامحه من الحزن الى الشفقة **سأله** :

- عامل إيه يا دكتور؟

لكم أفتقد هذا اللقب المحبب إليه، وتذكر أخته **(جيهان)** وهي تنطقه بكامل الفخر والسعادة.

ســـأل عن أمه وأخواته، رد أبيه أن يركز في أحواله هو، فالجميع بخير وينتظرون عودته، ثم قال أنه وبعد مناقشـــات مع

محاميهم ومن يربطهم بهم صداقة في سلك الشرطة رأى أن يسرع إجراءات المحكمة، ولا ينتظر الخمسة عشر يومًا، فأياً كانت النتائج فهي ستكون أرحم من هذا الحبس الضيق، والصعب في إجراءات الزيارة واللقاء.

نبيل الذي لا معرفة له بأي إجراء يحدث، فهو مستسلم لأي يد تجذبه كمريض في حالة تخدير تام، هز رأسه بالموافقة، قام الأب واقفًا، فقام (نبيل) كرد فعل، من المؤكد أن أبوه الذي لا تفوته التفاصيل مهما كان غموضها، لاحظ حالته التي تنم عن تناوله تلك الأقراص التي تجعله خارج الأسوار بل خارج كل هذا المكان وربما الزمان أيضًا.

أخرج حافظة نقوده، انتزع منها بعض الأوراق المالية ووضعها في جيب نبيل قائلاً له أن يخصصها لطعامه، لا لشيء آخر، هو يعرف إذاً كما توقع.

دفع العمدة بكيس من البلاستيك إلى نبيل، الذي لمح العلامة التجارية لأحد أفخم المطاعم في المحافظة **وقال** :

- كل ووكل أصحابك معاك.

اســـتلم **(نبيل)** عطية أبيه في صـــمتٍ مخزول، وهم بالتحرك فجرى إليه العسكري الذي كان جالسًا طوال الوقت قرب الباب في إنتظار انتهائهم، أمسك نبيل من يده وهو يتطلع بفضولٍ إلى ما يحمله وهو يقول ما تشد حيلك كدا يا أستاذ.

لم تفت هذه الإشـــارة الخفية العمدة الذي منحه بشـــكل غير مرئي كأنه ساحر يستعرض خدعه ورقة نقدية **وقال** :

- خد بالك من الدكتور يا دفعة.

قال الدفعة بلكنته الخاصـة بالإقليم الذي جاء منه وهو يسـحب (نبيل) :

- في عينيا يا عمدة.

١٨

نبيل في مســـاحته المحددة، إلى جوار الحائط، هذا المكان الذي يعتبره البعض مميزاً نتيجة لما يدفع من نقود وطعام، فهنا لا أحد يمر فوقه ولا يدوس متعمدًا أو بالخطأ على أطرافه، ربما تتســع عدة ســنتيمترات عندما يقل العدد، أو تعود لتضــيق إلى درجة يشعر معها أن الآخرين يجلسون فوق قفصه الصدري، يقوم أحياناً لأكل القليل من طعامه، ثم ترك الباقي منه الى أي يدٍ ممتدة، لم يهتم أصـــلا بصـــاحبها، فقد كان مهتماً أكثر بشـــراء القرص الذي يساعده على البقاء متحملاً هذا العالم الكئيب.

ربما قام ليقضـــي حاجته في هذا المكان الضـــيق يداري عورة الرفقاء فيه مجرد قطعة قماش أو أكل القليل ليعاود الرقاد، حتى أن بعضهم **قال له :**

- دا كدا إكتئاب يا عم إنت، فوق كدا وخليك معانا.

إكتئاب! كيف لم يخطر بباله أنه دخل في حالة إكتئاب، يعرف أعراض الإكتئاب بالطبع، لكنه لم يفكر هو ذاته أن يصاب به، تكدّر المزاج وفقدان الاستمتاع والاهتمام بالأنشطة اليومية، يعرف كل هذه العلامات ويعرف أنها تنطبق عليه، ولكنه لم يربط بينه وبين هذا المرض لكن في النهاية لم يغير

هذه المعلومة التي جاءته من رفيق محبسه شيء، كان غارقًا في غيابه عن الواقع عندما جاء من فتح الباب وتطلع الجميع إليه ولكنه نادى اسم نبيل، وطلب منه جمع أي شيء له، عاد البعض إلى حالة عدم الاكتراث، والبعض قال له مودعًا مع السلامة.

فاق قليلاً في قاعة المحكمة، تحديداً في قفص حديدي يتسع قليلاً عن سابقه، يتطلع إليه الكثير من عائلته، رجال يعرفهم، وشباب يميز سحنتهم ولا يتذكر أسمائهم.

وكأنما فجأة تم سحب الستار عنهم، أنهم رفقاء قفصه في انتظار أدورهم، جميعهم بنات لا يعبئن بما يحدث، يثرثرن بصوت عالي ويتبادلن الجمل الضاحكة مع أفراد الحرس، الذي تلمع أعينهم وهم ينظرون إليهن حتى لتكاد تخرج من محاجرها ولكن في النهاية لا يمتلكون سوى حاسة النظر لا يستطيعون تخطيها.

- إيه يا أستاذ.. مالك كدا شايل طاجن ستك ليه، فرفش كدا وسيبها على الله.

ضحكت الباقيات ثم قطعن ضحكاتهن عندما لم يرون إستجابة، أي إستجابة من **(نبيل)**، الذي كان يفكر في داخله أنه

لا مســـاحة في عقله لهن، لقد قابلنه في المكان الخطأ في الزمن الخطأ، رحم الله أيام القاهرة ولياليها.

وعندما حان دوره وقف محاميه، بالأحرى محامي أبيه الذي يعرفه منذ ســـنين لم يفكر يومًا بإلقاء التحية عليه، ولكنه الآن ود لو أنه يســتطيع أن يقبل رأســـه ويطلب منه إعمال كل ألاعيبه ليخرجه من هنا.

بدأ المحامي بتثبيت دفوعه في محضـــر الجلســـة، طالبًا براءة المتهم مما أسند إليه من تُهم، ودفع ببطلان نتائج التحاليل التي قامت بها النيابة، لأنها كانت للبحث عن مخدر في حين أن القضـــية هي القيادة تحت تأثير الكحول، كما أنه قد مر على الواقعة أكثر من ثلاثين يومًا، فلا جدوى من البحث عن مواد تتلاشى بعد عدة أيام.

بعد أن انتهي الكاتب من التســـجيل إســـتأذن المحامي في إلقاء مرافعته، وعندما أذن له القاضي **قال**:

- (بداية كان يسـير المتهم في حدود السـرعة المقررة قانونًا، وذلك على طريق ســـريع، إلا أن الظروف والأقدار ألقت بالمجني عليه في طريقه على حين فجأة، وقد كان الظلام دامسًـــا، وهنا حاول المتهم

تفاديه، محاولا تلافي خطأ المجني عليه بالعبور على طريق سريع، ولكن القدر كان أسبق، وكان يجب على المتوفي رحمه الله العبور من الأماكن المخصصة للمشاة على الطرق السريعة مثل **(الكباري والأنفاق)**

وهنا قاطعه القاضي قائلاً:

- بس يا أستاذ دا طريق مفيش عليه كباري ولا أنفاق!

وكأنما كان الأستاذ في انتظار هذه اللفتة من القاضي **فقال:**

- (معالي رئيس الجلسة.. هذا ليس خطأ المتهم، بل هو خطأ الدولة التي لم توفر للناس ذلك، ومن المعلوم أن المشاة يحظر عليهم العبور على الطرق السريعة، خاصة أن الواقعة كانت في كبد الليل، وعدم وجود أعمدة إنارة مضاءة، مع الوضع في الاعتبار الظهور المفاجئ للمجني عليه رحمه الله)

أوقفه القاضي بإشارة من يده ثم سأل :

- المعاينة أثبتت أن فيه آثار ضـغطت فرامل مسـافتها تتخطى الثلاثين مترًا مما يقول أن المتهم كان يقود السيارة متجاوزاً السرعة القانونية وبرعونة وتهور.

رد المحامي :

- هذه المعاينة تتوسـدها البطلان، وذلك لوجود خلاف مثبت بالأوراق بين المتهم وضـابط نقطة الشـرطة بالمستشفى، وقد قام بالمعاينة ضـابط شرطة زميل له وربما صديق، فهي إذا معاينة غير محايدة، ولا تعبرعن حقيقة ما حدث، أما بخصـوص التحليل الأول للبحث إذا ما كان المتهم تحت تأثير المخدر من عـدمـه فـإن النتيجـة غير دقيقـة، وأن العينـة المنسـوب أخذها من المتهم لا تخصـه، ودائمًا ما يحدث هذا الخطأ من اسـتبدال العينات في المعامل الحكومية، والتحليل الأخير كما تعلم سيادتكم للبحث عن مواد مخدرة من عدمها فلا علاقة لها بالواقعة من الأساس.

فقد كان يجب البحث عن نسـبة كحول بدم المتهم، وليس أي نوع مخدر آخر، و يعد ما حدث تعدياً على حرمة جسـد

المتهم، وخرقًا ومخالفة لقانون الإجراءات الجنائية، وبالتالي تكون النيابة العامة قد اختلقت حالة من التلبس واصـــطنعتها على الرغم من أن حالة التلبس يجب ألا يســعى إليها النيابة بل تظهر أمامها عرضًا.

وبناء على ما سبق نصمم على طلب البراءة، **قال القاضي بعد فترة صمته الطويل :**

- الحكم بعد المداولة.

استمر القاضي في نظر القضايا الأخرى، بينما نبيل يبحث بلا هدف معين عن أبيه بين الجالســين، أخيرًا وجده حيث يجلس، لم يكن يرى وجهه، ولكنه يعرف حركة الرضــا عندما يصدرها بهز رأسه للأمام والخلف بشكل خفيف، شعر نبيل فعلا أن المحامي قد بذل جهدًا كبيرًا في التحضــير لمرافعته، ولكنه كمن يقف وحده أمام تيار ماءٍ جارف يحاول إيقافه.

وفي النهاية خرج الحاجب ومعه كشــف بجميع الأحكام الصــادرة اليوم، ومنها قضــية **(نبيل)** بالطبع، ذهب ناحيته محامي نبيل مســرعاً، ويحاول اللحاق به مجموعة من أقرباء نبيل، ليصــدمهم جميعا أن الحكم هو ســت شــهور حبس مع الشغل والنفاذ.

تلقى نبيل الخبر بعقلٍ محايد، لا يجد في نفســـه فرحًا ولا حزنًا، وقبل مغادرة المحكمة أفهمه المحامي ضـــرورة الذهاب لعمل طعن للإســـتئناف على هذا الحكم، فكر نبيل في الرفض، ولكنه وجد أبيه يقترب **وهو يقول:**

- ولا يهمك.. شدة وتزول.

فمشـى منسـاقاً بلا إرادة مع حارسـه حيث مكتب الموظف المســـئول عن تســـجيل الطعون، بعد وقفة لم تطول أعلن لهم الموظف أن الجلسة بعد يومين.

مر اليومين ونبيل بين الغياب والحضـــور، لا يســـتطيع الثبات في حالة مزاجية معينة، يفكر في أمه عندما تعلم خبر ســجنه، في إخوته البنات، تذكر **(هالة)** بعدما ضــاعت منه في خضم هذه الأحداث.

وأخيرًا جاء حكم الاســـتئناف بتأييد الحكم الســـابق، ليقول المحامي موجهاً كلامه لأبيه أن هذه أفضل نتيجة ممكنة.

ليبدأ (نبيل) مرحلة جديدة في حياته، ســـتنســـيه كل نعيمٍ قبلها، وصارت الحياة نفق مظلم لا نهاية له ولا قرار.

١٩

ملمس المقعد الصاج ذاته، درجة الحرارة المرتفعة عن كل المحيط حولها ذاتها، وجوه العساكر المحايدة ذاتها، تلك السيارة التي صارت محبسه الثاني، سجنه المتحرك، تأخذه الآن لمحطة جديدة، بلا أقراص منذ يومين فيشعر بكامل ألمه مع كل ارتفاع أو انخفاض لسرعتها.

مع آخرين بوجوه قاتمة وعلامات مشاجرات سابقة في أجسامهم توحي بأنهم من أرباب السوابق، يتطلعون كل حين من تلك النوافذ المجازية، يلمحون سيارات الحراسة تمشي في الأمام وفي الخلف، ربما أعطاهم هذا شعوراً بالأهمية والخطورة المؤقتة.

شعوره بلا مثبطات، لذا يشعر بكل تغير بالخارج، ملمس الإطارات على الأرض والأصوات القادمة من العالم الحر، يفصل بينه وبينهم مجرد حائط من الصاج الأزرق من الخارج والصدأ من الداخل، لكنه منيع كحوائط خزائن البنوك.

تضطرب السيارة أكثر وتخف أصوات الناس، يشتم دون الحاجة للنظر رائحة الحقول، رائحة أرجعته إلى نافذته البحرية بحجرته العلوية، يغمض عينيه ويتخيل، هو الآن في حجرته، يأتي الهواء باردًا ومنعشًا، محملاً برائحة الحقول المروية حديثًا، حبوب اللقاح وأصوات العصافير، لأصواتها الآن وقع مختلف، ستنادي عليه أخته **(جيهان)** بين لحظة وأخرى أن يترك كتبه وينزل للطعام قبل أن يبرد.

تختفي رائحة الحقول من أنفه فيرجع إلى واقعه، موجات الهواء من النوافذ تصير أكثر حرًا، إذا فهي الصحراء، تمشي السيارة طويلًا كأنما هي صحراء بلا نهاية، ربما تاهوا وضلوا الطريق، يا لها من فكرة جميلة، أن يضلوا الطريق وينتهي الماء ويحاول كل واحد إنقاذ نفسه، حينها سيموت حرًا وبلا قيود، منهياً بذلك ألمه وحزن أمه وبكاء أخوته.

رغم تأكيد **(علي)** أن أمه لا تعلم، ولكنه على يقين أن لا شيء يبقى سرًا في القرى، سيجد الخبر إلى أذنها سبيلاً ولابد.

أخيرًا تتوقف السيارة، ترتج وتتمايل يمنة ويسرة وإلى الأمام والخلف، يميل الراكبون على بعضهم، يتخبطون، ثم يحاولون التماسك، يتركون طويلاً، الحر شنيع والهواء يقل للحد

الأدنى، يقول واحدًا يبدو أنه معتاد على هذه الرحلة، محاولاً تفسير هذا الصمت:

- "بيريحوا شوية في الضل من المشوار"

بعد حين يفتح الباب ويُؤمروا بالنزول، ثم يقفوا في صف طويل، يستلم الصول المكلف من الضابط المصاحب للرحلة ملفات نزلائه الجدد، يأمرهم بالعد تصاعديًا، يخطئ أحدهم، يتقدم منه الصول ويضربه بقبضته في بطنه ضربة تجعله يتلوى من الألم، يحاول **(نبيل)** تجميع شتات تركيزه كي لا يخطئ في شيء، بعد التأكد من العدد يُأمرون بالتحرك، يجدون أنفسهم في مكان متسع، بعد حين تعتاد أعينهم الرؤية بعد أن توازن بين الضوء والظل، إنها مخازن السجن ولا شك، ها هي أكوام من الأغطية والملابس.

يتقدمون واحدًا واحدًا، ليستلموا الفرش وأغطية للرأس وحذاء وملابس لكل منها رقم محدد، من حينها وإلى آخر وقته يصير الواحد منهم مجرد رقم، سيكون بديلاً عن إسمه حتى ليكاد ينساه، ينتهي اليوم في إجراءات بدت له أنها لن تنتهي، حتى جاء المساء، شعر بتعب شديد، قام الحراس بغلق الأبواب

وتقليل الأنوار للحد الأدنى، الليل قد أسدل ستائره تعود على سماع أنين الرياح وصوت نباح الكلاب في صمت الليل القاتم.

كانت تلك الليلة بداية لتغير كبير في حياته، فها هو هنا مجرد تابع للأمر والنواهي فقط، لا كيان له ولا إرادة، للمرة الأولى يشعر بأن حياته ليست ملكًا له، وأنه بات مجرد رقماً من هذا العالم القاسي، حياته كلها تمر أمامه، تتوقف هنا.

يبقي اللوم على أبيه، على نفسه، على هالة، على مكان مولده، الذي حدد مصيره، وربطه برباط من معدن به فلم يستطيع فراقه مهما حاول.

ثم استقر تفكيره أنه هو الملام الأول والأخير، أنه يستحق العقاب، فكر أن يضرب رأسه بالحائط ليجعله يكف عن التفكير، ولكن مشى بصره مع خيوط الضوء القليلة، ورأى الغارقون في نومهم، ربما كانوا يحلمون بالحرية، بلقاء أحبتهم، فلم يشأ أن يفعل ما يجعلهم يفزعون، نتيجة كل هذا التفكير أنه لم ينم طوال ليله، قرب الفجر صار بين النوم واليقظة، وكان فيما يشبه عالم الأحلام عندما استيقظ عقله كليًا على صوت الأبواب الحديدية وهي تُفتح، يقف بجوار سريره فيشعر ببرودة الأرض تحت قدميه.

يتوجه إلى النافذة الصــغيرة، حيث يرى شــعاع الشــمس يخترق القضــبان الحديدية، توجعه في عينيه ويشــعر بخيطٍ من الصداع يعبر رأسه، ولكنه يتذكر شباكه الصغير البحري، حيث كان ينظر فيرى الحقول الممتدة في خضــرة محببة، والفلاحون الســاعون الى أرزاقهم يبدأون يوم عمل جديد، هو أيضًــا أمامه يوم عمل هنا لابد أن يبدأ.

٢٠

ما يثقل عقل (نبيل) فعلاً هو الوقت وليس شـــيء آخر، لقد تقبل بعد فترة رفض فكرة عقابه، ومن حوله هنا ابتعدوا عنه، لم يبقى له ســوى أن يمر الوقت بأي طريقة كانت، بالنهار ليس هناك مشــكلة، يمر الوقت في زحام اســتلام الطعام وغســيل الأواني وانتظار الدور في الذهاب للحمام، ربما قرأ قليلاً أو اســتلقى في ســريره يراقب ذرات الغبار التي تجري بلا توقف في شعاع الشمس القادم من النافذة، ولكن الألم كله يكون ليلاً.

ليلاً يفكر أن زيارات من أبيه قلت حتى تكاد تنعدم، وقد منع إخوته أصــلا من القدوم إليه، وأســتمر إبن عمه (علي) في المجيء وإيداع المال له في (الأمانات)، فلا جدوى من استلامه، فالعملة المتداولة هنا هي علب الســجائر، وخصــوصًــا في اللحظات المتأخرة من الليل، حيث يصــير الســجن مكانًا مظلمًا وكئيبًا أكثر، يخيل إليه وهو في هذه الزاوية المظلمة من السجن الواقف وحيدًا في صــحراء الفيوم، أن جدرانه العالية وأســلاكه الشائكة تضيق الخناق عليه أكثر.

لم يكن الســجن مجرد مكان يقضــي فيه عقوبته، بل كان عالمًا آخر، حياة لا يعرف عنها شــيء، يكرر لنفسه انتقامًا وهو

يريد أن يضـــرب رأســـه بالحائط أنه يســـتحق ما حدث له وأنه تكفيراً لذنوبه.

العنبر على اتساعه يبدو ضيقًا، ككل مرحلة في حياته يقف في منتصف المسافات من كل شيء، الآخرين بجواره، آسرة متجاورة يفصل بينها مسافات بسيطة، تتسرب إلى أنفه رائحة عرقهم حتى حفظها، يمشي في الضوء الشحيح ليلًا ويصل إلى مكانه بلا خطأ، فقط متتبعًا روائحك المميزة، لم تكن هناك خصوصية، كل شيء كان مكشوفًا، حتى الأفكار، وظهرت أفكاره عن حبه للعزلة في تصرفاته، نعم لم يعاديهم ولكنه أيضًا لم يصادقهم، لذا انفض الجميع من حوله وتركوه وحيدًا.

في أول الأمر تقرب إليه عديدين باعتباره طبيبًا، يمكن الرجوع إليه فيما يطرأ على أحوالهم الصحية من تغير، لكنه لم يكن متعاوناً، لم يود أن يتورط في حياتهم المليئة بالقصـــص المأســـاوية، يحبون دائمًا يروون تفاصـــيل معاناتهم، لم يود يغوص أكثر في عالمهم، أو يشعر بألمهم، ويشعر بأن حياته لم تكن سيئة كما كان يعتقد.

كل يوم يلتقي بسجناء جدد، الكثير منهم فقد كل شيء وعلى سبيل المثال عائلاتهم، حريتهم، وحتى كرامتهم، ومع ذلك يحمل في قلبه أسرارًا وأحلامًا تتجاوز هذه الجدران العالية والباردة.

يقضون عقوباتهم بتهم مختلفة، كل واحد منهم يحمل قصته الخاصة، لكنهم جميعًا اشتركوا في شيء واحد وهو الحفاظ على الأمل في الحياة ما بعد الخروج، حيث خططوا ورتبوا لذلك مهما كانت مدة عقوباتهم، حتى بدا له نفسه أنه الوحيد الذي يعيش بلا أمل في الغد، نعم ستنقضي أيام سجنه ربما أسرع منهم جميعًا، ولكن ماذا يفعل بحياته وقد تدمرت وتبعثرت بعيدًا، وما العمل مع مستقبله وقد صار مظلماً وماذا عن نظرة أهله وجيرانه وأصدقائه والمجتمع له ، بعدما كان طبياً يشار إليه بالبنان ثم أمسى نزيلاً في سجن عمومي، وستطاله هذه اللعنة أينما رحل.

٢١

في يوم ما كان في وقت التريض، بينما كان يجلس في ساحة السجن يجلس وحيدًا حيث لم يصنع أي صداقات، اندلع شجارٌ عنيف بين اثنين من السجناء حول أمر لم يتبينه.

تطورت الأمور بسرعة، وتحول الشجار الى معركة، أحد السجناء، والذي كان ضخمًا جدًا دفعه ربما دون قصد، صرخ نبيل من الألم، لكنه لم يكن وحده.

أصوات الأنين كانت تملأ المكان، لكن الحراس لم يتوقفوا حتى سقط الجميع أرضًا، ترك نبيل مع جرحى آخرين في الزنزانة حتى يحن دوره في الكشف الطبي.

وعندما عراه طبيب السجن في حجرة الكشف رأى جسده مليئًا بأثار الكدمات والجروح منذ الحادث، رأى على وجه طبيبه ذلك الانطباع الذي يأخذه أي شخص بشكل لا واعي عندما يرى وجه كثير الندبات أو جسدًا كثير الجراح، (أن هذا مجرم عتيد) يشعر بألم أشد في داخله، ألم الانكسار والإهانة، وجد في نفسه رغبة أن يقول لهذا الزميل أنه طبيب، لكنه في النهاية سكت ولم يتكلم.

كان لابد لإدارة السجن من الإنتقام من السجناء المشاركين في المعركة، فتم جلب **(نبيل)** وسجناء آخرين من عيادة السجن إلى حجرة مظلمة، تُرك طويلاً حتى تهاوت كل دفاعاته النفسية والعصبية، وحتى يكون بلا إرادة تمنعه من الإجابات الصحيحة في حال كان يفكر في تغيير أقواله.

كان لا يعي في أي الأوقات هو، أليلُ هو أم نهار، وبينما كان جالسًا في زنزانته، اقترب منه أحد السجناء وقدم له زجاجة ماء، كانت قديمة ومنبعجة في بعض جوانبها، ولكن الماء داخلها ذو طعم جميل خصوصًا بعد إحساسه بعطش شديد.

رد الزجاجة إلى حاملها بيد مرتعشة وهو يقول شكرًا، جلس الرجل بجانبه وبدأ يروي له قصته.

كان الرجل في الخمسين من عمره، وجهه يحمل آثار التعب والإرهاق، وعيناه تحملان حزنًا لا يوصف، بدأ الرجل يتحدث عن حياته قبل دخول السجن، وكيف كان لديه عائلة وأطفال، وكيف انتهى به الأمر هنا بعد ارتكابه لجريمةٍ لم يكن ينوي ارتكابها.

تحدث عن الشعور بالذنب، وعن الليالي الطويلة التي قضاها وهو يبكي في الظلام، ينتظر رحمة لا تأتي، ختم كلامه

بأن قدم له النصـــائح في كيفية الخروج من مأزقه، وكيف يرد بإجابات لا تُدينه ولا تُدين أي أحد حتى لا يتســـبب ذلك في عداوات قادمة بينه وبين زملاء الســجن فيما هو قادم من الأيام، وعندما حقق معه الضـــابط وهو يتلوى من ألمٍ منعه من فتح عينيه، عرف أن ليس لديه ما يقوله؛ فتركه يعود إلى سريره.

عرف فيما بعد أنه يســمى عم إبراهيم، بدا له رجلًا حكيمًا، يحمل في قلبه تجارب الحياة وأسرارها، كان يتحدث عن شبابه، وعن الأيام التي قضاها في سجن آخر يسميه سجن **(المزرعة)**، حيث عاشــر كبار القوم وأخبره بأن محبســهم ليس كهذا، فحتى في السجن يصير الناس درجات فوق بعضها البعض.

لعدة أيام، صار نبيل وعم إبراهيم أصدقاء مقربين، أمسيا زميلين.

هو الوحيد الذي يتحدث إليه عن كل شـــيء تقريباً، عن الحياة خارج السجن، وعن الأحلام التي لم تتحقق، ولكن نبيل لم يستطع الاستمرار فابتعد عن الرجل رويدًا رويدًا.

٢٢

الضـــغوط تتزايد عليه من كل جانب، من الســـجناء الذين كـانوا ينظرون إليـه على أنـه **"الغريـب"** بينهم، والحراس لا يحبون التحدث إليه، وإذا بأحدهم يخبره أن لديه زائر، خرج فوجده إبن عمه **(علي)**، يظهر على وجهه التعب والإرهاق والحزن، أخبره بعبارات حاول أن يختار من الألفاظ ألطفها وجعلها مخففة على وقع أذانه وأخبره بأن أمه قد ماتت، بدأ يشعر بأن العالم ينهار من حوله، الدوامة المظلمة التي وقع فيها.

الزمن صار أكثر بُطئاً، لا يأكل إلا قليل، حزين دائمًا، يفكر أنه أراد الزواج من هالة ليصـــير من طبقة أخرى غير طبقته، عارض أبيه لمجرد المعارضـــة وإثبات الذات، عمله بالقاهرة لمجرد خلاصه من كل ما يمت لأصله بصلة، ولكن كل ما أراد الفكاك منه عاد إليه، كل ما أراد الهرب منه التصـــق به أكثر، يرهقه التفكير فينظر في الأرض محاولاً تهدئة عقله.

وكأنما كان هذا الشـــاب يراقبه منذ الأذل بانتظار اللحظة المناسـبة، كان في وقت الخروج للشـمس، جالسًـا وحيدًا كعادته على بطانيةٍ قذرة، اقترب منه شـاب هزيل، لم يهتم نبيل إليه ولم يرفع بصـــره عن تلك النقطة على الأرض والتي تَتشـــكل أمامه

وجوه تنمحي وتتكون غيرها، عادة قديمة تعاوده كلما جلس وحيدًا فارغ الذهن، جلس الشـــاب ذاته بجانبه، تنحنح ثم **قال بصوت منخفض :**

- "إنت دكتور، صح؟"

لكن نبيل لم يرد، فتح الشاب يده ببطء وهو يمدها أمام نبيل كســـاحرٍ يمارس ألاعيبه، وإذا بأقراص من أنواع مختلفة في باطن كفه، تعرف عليها نبيل فورًا، لمعت عينيه فجمع الشـــاب أصابعه سريعاً وسحب يده، **ثم قال هامسًا :**

- إحنا بنعالج الناس برضوا، بس من الهم والحُزن.

قام نبيل إلى فراشه، سحب عدة عبوات من السجائر ثم عاد إلى الســـاحة، بحث عنه ببصـــره، حتى إذا ما وجده يقف بعيدًا يضـحك أشـار إليه، فمشـى الشـاب وتنحى تحت الحائط، تتبعه **(نبيل)** حتى وصل إليه، وتم التبادل بهدوء وبلا مشاكل.

بدأ بتعاطي المخدرات بحذرٍ، محاولاً أن يحتفظ بعقلانية جزئية، لكنه سـرعان ما وقع في الفخ، كانت المخدرات توفر له مهربًا مؤقتًا من الواقع القاســـي الذي يعيشـــه، لكنه كان يعلم أن

الثمن سيكون باهظًا، بدأ يدرك أن الإدمان لم يكن مجرد هروب من الواقع، بل كان غرقًا في هاوية أخرى لا أقل ظلامًا.

في كل ليلة، عندما تخفت الأضـــواء، وينام الجميع أو هكذا يبدو عليهم، كان يغلق عينيه ويبدأ رحلته في عقله وماضـــيه، النوم قليلًا، والكوابيس التي تراوده فقط في الليل صـــارت تعود إليه في النهار على شـكل أبيه وهو يصـيح فيه بصـوتٍ رهيب، يغمض عينيه ويفتحها ليجد أحد حراس السجن يأمره بأن يتنحى جانبًا ولا يقف في الممر العام.

يعي لذاته أحيانا فيعرف أنه صار مدمناً، منهكاً جسدياً ونفسياً.

وأنه لن يســتطيع العودة إلى حياته الســابقة كطبيب ناجح، سيكون عبئًا على نفسه وعلى عائلته.

يعلم أنه بحاجة إلى علاج، إلى مصحةٍ للتخلص من الإدمان الذي سيطر على حياته.

لكن العلاج لم يكن سهلًا، فقد كانت الذكريات المؤلمة لحياة السابقة تطارده، يشعر بالضياع، بالفقد لكل شيء.

وســـواء كان في وعيه أو غيابه في النهاية، كان عليه أن يواجه الحقيقة المريرة : **حياته قد تغيرت الى الأبد.**

لم يعد ذلك الشاب الطموح الذي كان يسعى لتحقيق أحلامه، بل أصبح رجلًا محطمًا يبحث عن طريق للخلاص.

كان يدرك أن رحلة العلاج طويلة وصـــعبة، لكنها كانت الفرصـــة الوحيدة له للبدء من جديد، لإنقاذ ما تبقى من حياته وكانت تلك السموم تجري في عروقه كأنها لعنة لا يمكن الفكاك منها.

٢٣

ذات يوم، جاءه أحد الحراس إلى جوار ســـريره، كان قد ابتلع جرعته للتو ولا يقدر على فتح عينيه، أمره الحارس بالقيام لمقابلة الضابط المسؤول.

لم يستجب، فسحبه الحارس من ذراعه، وعندما دخل إلى مكتب الضـــابط، وجد رجلاً في منتصـــف العمر، وجهه يحمل تعبيرًا قاسيًا وغاضبًا، **نظر إليه نظرة متأملة قبل أن يسأله :**

- "أنت دكتور؟"

أومأ برأسه بنعم، وهو يشعر بأن الكلمات تختنق في حلقه .

- "كويس، عندنا مصـــاب هنا بحاجة إلى مســـاعدة، هتقوم بمعالجته، دكتور السجن مش موجود"

لم يكن هناك مجال للرفض، كان عليه أن يقوم بدوره كطبيب، رغم أن المكان والسياق كانا مختلفين تمامًا عما إعتاد عليه.

أدخله الحارس الى العيادة الصـــغيرة داخل الســـجن، حيث يعالج سجناء يعانون من أمراض مختلفة، من الجروح البسيطة إلى الأمراض المزمنة، كان على ســـرير الكشـــف عم إبراهيم

وجرح في جانبه ينزف بشـــدة، والذي رغم ما فيه من ألم نظر إليه وابتســم، وعندما لم يرى منه بادرة أمل بدأ في الإســتجداء طالباً منه أن يســعفه، حتى لم يعد لديه قدرة على الكلام فدمعت عينيه وســكت، نبيل مشــوش العقل بدرجة لم يســتطع معها التحرك، أمره الضــابط بلهجة غاضــبة أن يفعل شــيء، ولكنه وقف جامدًا لا يقدر على شــيء، ثم إنهار على الأرض، أشــار الضابط إلى الحارس فسحب نبيل وألقى به الى الخارج.

مســاجين آخرين جاءوا وســاعدوه ليبقى على ســريره، نام وعندما قام علم أن عم إبراهيم قد مات، فبكى، بكى كما لم يبكي من قبل، بكى لإبراهيم ولذاته، لفقده أمه وهالة وعمله وأحلامه، وعلى حافة الســرير الصــاج الصــدأ مرر ذراعه مرارًا، وســال دمه غزيرًا.

حدثت حالة عامة من الهلع، إبراهيم بالأمس وهو اليوم، مشهد الدم لازال عالقًا بأذهانهم عندما وجدوا إبراهيم ملقى وهو يصــيح من الألم ويبحــث في جنون عمن طعنــه ثم اختفى بين الآخرين.

ضــربوا على باب الســجن بقوة، جاء الحارس يجري، أخبروه بما حدث، أحضر عدة زملاء له، طلب أحدهم اثنين من

المســـاجين حمل نبيل لعيادة الطبيب، ها هو مكان إبراهيم بالأمس أو قبل أمس لا يذكر، رقد مستسلماً بين يدي الطبيب، الذي خاط يديه بخيط طبي بلا تخدير أو كلمات مواساة، تركوه مكانه عدة ساعات ثم أعادوه إلى مكانه، على آخر اليوم أرسل له مدير الســـجن، جاء إلى مكتبه، على يمينه علم الوطن ولكنه مستكين لا يرفرف، وعلى يساره علم عليه نسر رافعاً جناحيه كأنما يريد أن يطير فلا يستطيع.

أمره بالجلوس، فإرتمى نبيل مرةً واحدة، تفرســـه الرجل قليلاً **ثم قال** :

- البرشام دمرك تمامًا يا دكتور.

صـارت كلمة دكتور غريبة الوقع على مسمع أذنيه، ولكنه لم يبدي أي تفاعل مع الكلام، **فاستكمل الرجل خطبته :**

- متبقي لك أيامُ قليلة معانا، أرجو أنك تكملهم بســـلام ومن غير متاعب، أيام وتكون برًا، وهناك.. هتلاقي طرق كتير تخلص بيها نفسك أسهل من كدا.

كانت القســـوة والغضـــب يبدوان من ملامحه ولهجته من محاولة نبيل الإنتحار، أو ربما لأنه لم يقدم شـــيئًا حينما طلب للمساعدة، عاد نبيل إلى مكانه يجر أقدامه جرًا فوق الأرض.

كانت الأيام الأخيرة صعبة، مليئة بالألم والقلق.

يشـعر مع كل محاولة للحركة بأن جسـده يخونه، وأن عقله لا يسـتقر على فكرة بعينها، يعلم أن ذلك بسـبب تأثير نوع المخدر الرخيص، ولكنه لم يعد يمتلك الآن قدرة على التراجع.

د. نبيل وهو يجلس مع مدير السجن في مكتبه وفي الخلفية

يظهر علمي مصر ووزارة الداخلية.

٢٤

في يوم خروجه لم يودع أحد ولم يودعه أحد، فقط تذكر إبراهيم الذي كان يحلم بالحرية والعودة الى قريته والتوبة التامة، ضرب قلبه وإرتجف عندما وجد سيارة أبيه، ولكن **(علي)** هو من كان بداخلها، احتضنه ثم تركه سريعاً لما أصابه من هشاشة، ربما شعر **(علي)** أنه لو ضغط عليه لانكسر في يده كعصفور.

لاحظ ما عليه من علامات إرهاق ودوائر سوداء تحيط بعينيه.

جلس نبيل صامتاً طوال الطريق، حاول **(علي)** فتح مواضيع للحديث مثل انتظار أخوته له، وأنهم في انتظار وصوله يكادون يبكون من السعادة بخروجه، ولكنه ظل في صمته.

في البيت سلم بفتور على أخواته ومن قابله من الرجال، استسلم لأيديهم يضمونه ويقبلونه بدون رد فعلٍ منه، إنتهى من المقابلة الحميمة مع أهله فصعد إلى حجرته وانعزل بها.

استمر الوضع لعدة أيام، فقرر الأب استدعاء طبيب نفسي لتقيم حالته والإشـــارة عليهم بما يجب أن يحدث، وعندما أتى الطبيب يعرج خفيفاً في مشـــيه ولكنه بدا محترفاً فيما يفعل، حاول التواصل مع نبيل لكن ثار ثورة عظيمة، كان رجلاً أسمراً وممتلئاً قليلاً، يحيط بوجهه لحية بيضـــاء كأنما تبروز ملامحه التي تبدو للمتأمل ســـاخرة من العالم، بإشـــارة من الأب إليه فهم أنه **يقول** :

- (أفعل ما تراه ضروريًا).

فطلب من الرجال المحيطين الإمســـاك به ثم حقنه بمهدئ جعله يسكت فجأة عن الحركة، فبدا نبيل أمام أبيه كما كان طفلاً نائماً في هدوء، هز رأسه يطرد صور الماضي من عقله كي لا تفر دمعته أمام الرجال، بينما كان الطبيب يتصل بسيارة المركز الذي يملكه، وفي إنتظار الســـيارة كان الطبيب قد ملئ أوراقه بكل مـا يراه في حـالـة **(نبيل)**، ثم طلـب من أبيـه التوقيع على بعض الأوراق.

وجاء المسعفين، وبمساعدة أبناء عمومته قاموا بنقله على مهل إلى السيارة والتي كانت مجرد سيارة عادية وليست سيارة إسعاف كما توقعوا، سمع أخوته الطبيب وهو يبلغ المحيطين أن لا زيارة ولا اتصـــال لمدة شـــهر كامل، فبكين وهم يختبؤون من أمام أعين أبيهم.

في المركز تم ســـحب عينات الدم والبول لمعرفة أنواع المخدرات التي أدمن عليها، ولأنه بدأ في تكســير أثاث الحجرة وضرب رأسه بالحائط فقد أمر الطبيب أن يظل في سريره مقيدًا لعدة أيام حتى يهدأ، يحاول الممرض إطعامه ولكنه يبصـــق الطعام ويتكلم بغضب ويتقوس جسده بشدة من أعراض إنسحاب المخدر.

د. نبيل وهو يحطم أثاث غرفته في مسكنه

في البداية بدا على وجهه الشحوب والإرهاق واتشح أسفل عينيه بسوادٍ شديد، ثم عبرها الى إحساسه بالرفض أن يكون هنا، جرب أن يكون عنيفاً فقابله العاملون بعنفٍ مضاد، فلجأ للقول بأن أمه مريضة وأنه مريض وأنها بحاجة إليه، لكنهم كانوا كالآلات تعمل ولا تسمع، عرف فيما بعد أن معظم العاملون هنا من المدمنين المتعافين، مروا بالتجربة ويفهمون كل ما يلجأ إليه النزيل هنا من حيلٍ وأساليب خداعية.

استسلم أخيرًا، حتى أن الطبيب أمر بفك قيوده، وقام ليمشي إلى الحمام بنفسه، ويتناول طعامه وحيدًا، لكن الآن أصبح لديه روتين يومي يساعده على البقاء على الطريق الصحيح.

كان يستيقظ كل صباح ويبدأ يومه بالصلاة، يتبعها بتمارين رياضية خفيفة، وأصبح يشعر بأن هذه العادات الجديدة تمنحه القوة والوضوح الذهني.

أحيانًا كثيرة يقوم ويمشي خلال المكان، يتفقد الخارج من خلال النوافذ المغلقة دوماً، مجرد مكان صغير بين القضبان الحديدية ينظر منه للخارج، وبدأ في اكتشاف العالم من حوله، إنها مصحة وسط الزروع، لها حديقة أمامية يمشي على سورها أشجار الفيقس والجهنمية، تبدو للعابر مجرد فيلا لأحد الأثرياء،

يختارها الكثيرين لبُعدها عن أعين من يعرفونهم، حفاظًا على خصوصيتهم، قابل فيها أناس من كافة طبقات المجتمع، أطباء ومعلمين وأناس بُسطاء، تتنوع تصرفاتهم من حب الاختلاط إلى العزلة التامة.

تتكون المصحة من عدة أدوار ويقسم المرضي فيها حسب مرحلة العلاج، من مرحلة التخلص من السموم، إلى شبه متعافي، إلى عنبر الرعاية، ثم مرحلة التأهيل على الخروج ومواجهة إغراءات العودة.

له حجرة مشتركة مع مريض صامت دائمًا، بدا له أنه يعاني من إكتئاب حاد، يجلسون بالساعات يتطلعون الى شاشة تلفزيون عالي موضوع داخل علبة من الحديد ووجهته من البلاستيك الشفاف، البلاستيك هو المادة الأساسية هنا، الأكواب من البلاستيك والأطباق والملاعق، حتى النوافذ تم استبدال الزجاج ببلاستيك كي لا يتم كسره ومحاولة أذية النفس أو الغير.

حتى حواف الأسرة الحديدية تم تغطيتها بالجلد الأسود، وكأنها عاصفة تجتاح جسده وروحه، ولكنه يحاول المقاومة، كل شيء هنا يشعره بالوحدة والغرابة، أعقاب السجائر في كل مكان وحتى السجائر نفسها بالعدد والموعد.

استبدال سجن بسجن آخر، يتذكر أبيه بكثير من الاحساس بالغضب، صارح الطبيب في جلسة الصباح أنه يعتقد أن أبيه قد تخلص منه بإلقائه هنا.

ولكنه أخبره أن الإدمان يجعل الشخص متشككاً في الجميع، وأن عليه فقط أن يُثبت له أنه قادر على الوقوف على قدميه ثانية.

بالطبع لم يعلم أن أباه اتصـــل عدة مرات لكن الطبيب أكد لوالده إن كل يوم هو خطوة نحو الشفاء.

حقاً الأعراض الإنسحابية قاسية، يشعر معها بأن كل شيء ينهار من حوله، لكنه بدأ يشعر بتغيرات طفيفة في حالته.

كانت الأعراض تتلاشـــى ببطء، وبدأ يســـتعيد بعضًـــا من قوته. ولكنه قاوم حتى تخطى الوقت اللازم وتم نقله الى المرحلة التالية، مرحلة شبه المتعافي وسمح له بالزيارة.

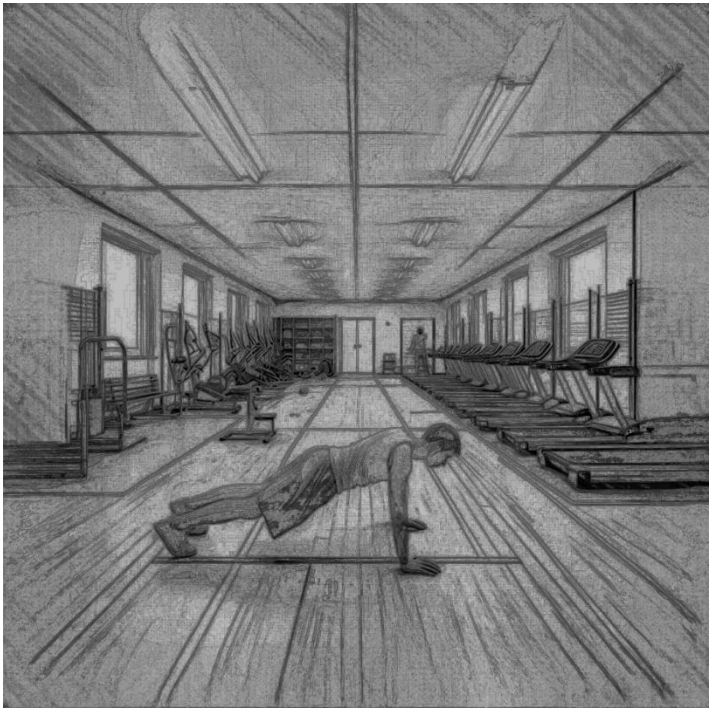

د. نبيل وهو يقوم بأداء التمرينات الرياضية في الصالة الرياضية

الملحقة بمركز الإصلاح النفسي وعلاج الإدمان

٢٥

كان يوم الجمعة هو المخصـــص للزيارة، يبدو اســـتقبال المصحة مزدحمًا بشدة، ليس فقط بالبشر ولكن أيضا بمشاعرهم التي تفيض وتتلون لرؤية أحبائهم بعد شـــهر كامل من الإنقطاع التام، وقد أحضـــروا لهم ما يعتقدون أنه يحبون، أطعمة وكتب وأدعية خالصـــة من القلب بالرجوع للطريق الصـــحيح، يجتمع المســـتشـــار النفســـي بمن جاء لزيارة ليتأكد عليهم بأنه يجب أن يجعلوا النزيل يؤمن بنفسه أولاً، وأن يتتبع النظام الذي وضعناه له، ولا داعي أبدًا لأي كلمات لومٍ أو إحباط .

كان يومًا مشحونًا بالدموع والمشاعر عندما حضنه أخوته البنات وبكوا بشـــدة، حتى بعدما جلســـوا معه في شـــبه دائرة صـغيرة لضـيق المكان ظلت **(مها)** ترسـل دموع عينيها مراراً، حينها فقط قرر وهو يتأمل يديه المرتجفتين أنه يجب أن يصـــبح قويًا ويتغلب على إدمانه وأن يســـعى لإســـتعادة ثقته بنفســـه **وهمس لنفسه :**

- (لقد قطعت شوطًا طويلًا، ولا يمكنني التراجع) .

صورة للبطل وهو يستقبل أخوته البنات اللاتي قمن بزيارة في المصحة النفسية وهم يحضرون له الطعام

في هذا اليوم عاد إلى ســـريره يحمل ما أتوه به من طعام، كان الليل قد أســـدل ســـتاره على المدينة، بينما كان يجلس في غرفته على حافة السـرير، بدأت الأضـواء الخافتة تتسـلل عبر نافذة الغرفة الصـــغيرة، وتبزغ النجوم واحدةً وراء الأخرى، شعر بشيءٍ من الأمل يتسلل الى قلبه.

ربما.. فقط ربما يمكنني أن أعيش حياة جديدة، فكر بحياة خالية من الألم والكراهية.

بدأ **(نبيل)** يتبع النظام بدقة، من جلسات العلاج الجماعي إلى التمارين الرياضية والنظام الغذائي الصحي، كان يعلم أن الطريق طويل، لكنه كان مصممًا على الوصول الى النهاية.

كان يحلم باليوم الذي يستطيع فيه أن ينظر إلى نفسه في المرآة ويرى شخصًا نظيفًا ومعافى، أن يرى نظرة رضى في عيني أبيه، وكذلك نظرة افتخار في أعين أخوته وتمنى أن يُسمح لأخواته بالمجيء لزيارته يومياً.

مع تعدد الزيارات وتخطيه مراحل برنامج العلاج لاحظ أبوه أنه بالفعل بدأ يستعيد قوته وإرادته، في جلسات العلاج الجماعي، إستمع **(نبيل)** إلى قِصص الآخرين، مما أعطاه الأمل والإلهام، تعلم كيفية مواجهة مشاكله بدلاً من الهروب منها، وبدأ يكتشف جوانب جديدة من شخصيته.

كان يستيقظ كل صباح بشعورٍ جديدٍ من الأمل، **يفكر داخل نفسه قائلا :**

- كنت أعتقد أنني لن أتمكن أبدًا من التخلص من هذا الكابوس، **قالها بصوت هادئ.**

لكنني الآن أرى بصـــيصًـــا من النور في نهاية النفق، مع مرور الأشهر، أصبح أكثر استقرارًا وثقة بنفسه.

مع الوقت، بدأ يضـع خططًا للمستقبل ما بعد الخروج، كان يحلم بالعودة إلى العمل في مكان جديد ووجوهٍ جديدة، كان يعلم أن الطريق لن يكون سهلاً، لكنه كان مستعدًا لمواجهة التحديات.

في يوم من أيـام الجمعـة، بينمـا كـان يســير في الحـديقـة المجاورة للمركز في انتظار مجيء أخوته البنات للزيارة، شعر بنسيم بارد يلامس وجهه.

نظر للوحـة الطويلـة الموضـــوعـة في مدخل المبني عن حقوق المريض الانســانية والقانونية، كأنما هي رســالة لأهالي النزلاء كي يطمئنوا، ولكنـه حول بصـــره عنهـا وأغلق عينيـه واسـتنشـق الهواء العليل، وعندما فتحها وجد أمامه **(هالة)** تعبر الطريق مبتســمة من الجانب الآخر، وفجأة ظهرت ســيارة مسرعة وضربتها بقوة لتطير في الهواء و أحس بيد تهز صدره بلطف وتحدثه ...

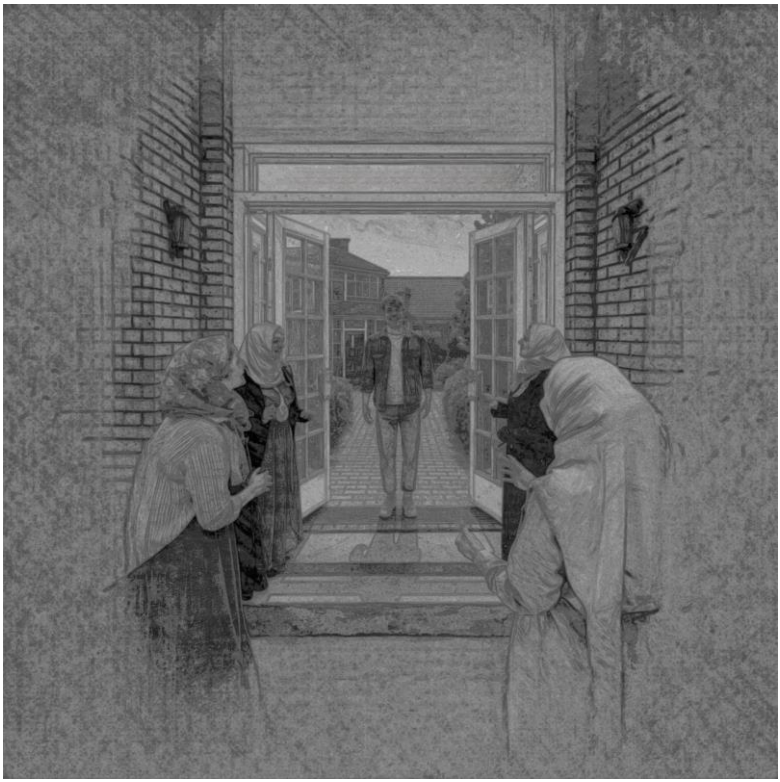

د. نبيل وهو خارج من المصحة النفسية بعد أن تعافى من

الأدمان وتستقبله هالة وحولها أخوته

٢٦

كان نبيل يصرخ بشدة بينما يد أخته الصغرى مها تهزه كي يستيقظ من كابوسه، أخيراً قام يغطى وجهه عرقٌ غزير، ذكر الله مرارًا ومراراً وتلفت حوله فيما بدا لمها أنه لا يعرف أين هو، فقالت مها له أن يهدئ من روعه وأنه في بيت أبيه، في حجرته التي اعتاد أن ينام فيها منذ صغره **ثم أضافت قائلةً :**

- الظاهر كدا لما سبت الأوضة ورحت مصر سكنها عفريت.

قالتها وهي تبتسم محاولة تهدئته، ثم أضافت بجدية **وهي تريه أحد فساتينها :**

- لازم نبقى نشغل فيها قرآن، وإيه رأيك في الفستان ده علشان كلمت بابا ووافق أني أروح معاكم وإنت بتخطب عروستك هالة.

قام من سـريره مسـرعاً وبحث عن هاتفه بجواره حتى وجده، طلب من مها المغادرة فغادرت حجرته متعجبة من تصرفاته، جلس على حافة سريره يتنفس بصوت عالي، أمسك هاتفه وطلب رقم هالة، وعندما ردت لما يبدأ بأي كلمة من كلمات الحب المعتادة، بل أخبرها أنه رأى حلماً مزعجاً، كأنه تنبيه على عدم ارتكاب أخطاء، قد تغير مجرى حياتهما للأبد، لذا عليها أن تقنع أبيها بأي شكل كان وهو أن يأت لإستقبال أبيه العمدة، وأيضـا يجب تحضـير غداء يليق بأبيه ومن معه من الرجال، يبدو أنها حاولت تهدئته فهدأ قليلاً ثم أسـتأنف كلامه وقال أن عليها الضـغط على أمها لعدم الإسـراف فيما تطلبه من أبيه عندما يأت، وعندما وعدته بأن تفعل كل ما يطلب هدأ تماماً واعتذر لها عن طريقته في الحديث هذا الصـباح فالحلم كان مخيفاً ومزعجاً.

ترك هـاتفـه بجواره وارتمى على سـريره مرةً أخرى، جاءه صـوت رسـالة، ففتحها كانت من هالة، تطلب منه فيها التأكيد على مكتب اسـتئجار السـيارات توفير سـيارة ليموزين بسائقها لحفل الزفاف، رد برسالة مختصرة قائلا: **حاضر .**

قام ومشـى ناحية زجاجة الماء التي تركتها مها ورائها وشربها إلى آخرها.

ثم نزل ليستأنف الحديث مع أبيه فيما جاء من القاهرة من أجله، وهو طلبه الحضور لخطبة هالة.

مشى كل شيء كما خطط له، وتم تحديد موعد حفل الخطوبة، كان في أقصى درجات السعادة، وهما يران كل تفصيلة تخيلاها منذ شهور تتحقق أمامها، ركبا العربية الليموزين البيضاء المستطيلة والمزينة بالكثير من الورد، وانتظر هالة أمام مركز التجميل الشهير في وسط القاهرة، وخرجت يحيطها أخوته وأصدقاء له، كانت في غاية الجمال والأناقة والروعة وأنوثتها طاغية، ركبت هي بجواره بينما ركبت البنات الأخريات في سيارات أخرى.

مشت السيارة ببطء يناسب حجمها، حتى إذا ما صارت على الطريق الدائري صارت سريعة جداً، إلتفتت هالة للوراء، فوجدت أنها إبتعدت كثيرًا عن ضيوف حفلها، نبهت نبيل لذلك، فنادى على السائق فلم يسمع شيء، فبينهما حاجز من الزجاج، فقام نبيل وضرب عليه خفيفاً، التفت السائق فتراجع نبيل فجأة للوراء.

سألته هالة عما حدث، فلم يرد، الرجل الجالس أمام مقود السيارة ينظرإليه بإبتسامةٍ مخيفةٍ، أنه هو ذاك الرجل الذي

دهســـه بالحلم الذي رأه من قبل، نفس الرجل الذي كان يعبر الطريق مرتدياً بالطو طويل وغطاء للرأس، صـــرخ نبيل طالباً منـه الإنتبـاه للطريق، لكن الرجل ظل على وضـــعه الغريب بالنظر للوراء، نبيل يصرخ **وهو يقول :**

- حاسب .. حاسب..

ثم صمتٌ تام .

خـــاتمة

وما من كاتب إلا سيفنى وبيقى الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شئ يسرك في القيامـة أن تراه

ما يسطره القلم هو ما يبقى ولكل بدايةٍ نهاية، وخير العمل ما حســـن آخره، وبعد هذا الجهد المتواضـــع أتمنى أن يكون ما سطرت قد نال إعجابكم، وداعماً لكم لإكتشاف ذاتكم واستخراج الطاقة الكامنة فيكم، ونأمل أن نلقاكم في رواياتٍ قادمة، وداعياً المولى أن يوفقني وإياكم في صلاح ديننا ودنيانا وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير ختام السلام.

د. مصطفى سليمان الخطيب

مواقع التواصل الإجتماعي:

- Drmostafaelkhateb@gmail.com
- https://facebook.com/mostafa.kamel.858/
- **Instagram: @mostafa.kamel.85**
- **Tiktok: @mostafa.kamel.85**
- **Youtube: @mostafa.kamel.85**
- **X: @MostafaSKamel2**